جـــاء في حـــديث جبريل عليه الســـلام : ((**قـــال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال : أن تـؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتـؤمن بالقدر خيره وشره**)).[1]

وبعض هـذه الأمـور ليس للعقل سـبيل إليها من ذات نفســه، إنما يتعــرف عليها عن طريق الــوحي، ويسلم بها تسـليماً، كالإيمـان بالملائكة واليـوم الآخر وما يشـتمل عليه من بعث ونشـور وحسـاب وجـزاء وجنة ونـار.. وكـان هـذا كله وراداً في ((مســلمات)) الدين الكنسي، ولا اعتراض عليه .

ولكن هنــاك فارقــاً أساســياً بين ((مســلمات)) الدين الصـحيح والمسـلمات الكنسـية الأخـرى الـتي كـــانت تجـــبر النـــاس عليها إجبـــاراً وتمنعهم من مناقشــتها في أمر صــحتها، وتتهمهم بــالمروق عن الدين إن خالفوها أو هموا مجرد هم بمناقشتها!.

فالمــدخل إلى هــذه المســلمات في الــدين الصحيح هو الإيمان بالله والتعرف على صفاته الــتي لا يشـاركه فيها أحـد، وفي مقـدمتها أنه هو الخـالق وأنه على كل شــيء قــدير، والإيمــان بالرســول المرسل وصدقه وأمانته [2] ، والإيمان بأن ما يخــبر به عن ربه وحي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وكل هــذه يــدعى العقل دعــوة صــريحة إلى التفكير فيها، والتأكد منها قبل الإيمان بها، وخذ مثالاً على ذلك ما جـاء في كتـاب الله من خطـاب للقـوم المدعوين للإسلام: (**أفمن يخلق كمن لا يخلـق؟ أفلا تـــذكرون**؟) (**قل أرأيتم ما تـــدعون من دون الله أروني مــاذا خلقــوا من الأرض أم لهم شـرك في السـماوات . إيتـوني بكتـاب**

---

1 (?) رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه (نووي 1/157) .

2 (?) وهو بالنسبة للنصارى المسيح عيسى ابن مريم .

من قبل هـــذا أو أثـــارة من علم إن كنتم صادقين) (**هـذا خلق الله فـأروني مـاذا خلق الـذين من دونـه. بل الظـالمون في ضـلال مبين)** (**قل إنما أعظكم بواحـدة. أن تقومـوا لله مثنى وفرادى ثم تتفكـروا. ما بصـاحبكم من جنة)** (**لو كـان فيهما آلهة إلا لفسـدتا..)** (**ما اتخذ الله من ولد وما كـان معه من إله . إذاً لـــذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضـــهم على بعض . سبحان الله عما يصــفون)** (**أفلا يتدبرون القرآن. ولو كـان من عند غـير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**) .

فإذا آمن الإنسـان – وهو مـدعو للتفكر والتـدبر وإعمال العقل ليؤمن- بأن الله هو الخـالق وهو على كل شيء قـدير، وآمن بصـدق الرسـول المرسل ، وآمن بأن ما يخبر به الرسول عن ربه وحي لا شبهة فيـه، فقد أخـبره الـوحي بـأمور لا سـبيل للعقل أن يصل إليها من تلقـــاء نفسه لأنها ليست مما يقع في محيط رؤيته ولا تجربته، وطلب منه التسليم بها لأنها آتية من المصدر الحق الذي آمن بصدقه وصـدق كل ما يجئ من عنـــده. وهي في الــوقت نفسه لا يملك العقل دليلاً حقيقياً ينفيها.. فوجب عليه أن يسلم بها وقد آمن بمقدماتها التي توصله إلى التسليم بها.

هذا شأن المسلمات في الدين الصحيح: أمور لا يملك العقل أن يســتدل عليها من تلقــاء نفســه، ولا يملك في الـوقت ذاته دليلاً حقيقيـاً ينفيهـا، ثم إنه لا يــدعى إلى التســليم بها قبل أن يســلم بالمقــدمات الـتي توصل إليها عن طريق التفكر والتـدبر والتأمل في ملكوت السماوات والأرض .

أما المســلمات الــتي فرضــتها الكنيسة فرضــاً وأرهبت الناس من مناقشتها فهي غير ذلك تماماً .

فحيث يتجه العقل والتـدبر والتأمل إلى الإيمـان بــأن الله واحد أحــد، وأنه لو كــان في الســماوات والأرض آلهة إلا الله لفسـدتا.. تقـول له الكنيسة إن الله ثلاثة، ثم تزيد الأمر تعقيـداً فتقـول له إن الثلاثة واحد والواحد ثلاثــــــة، ثم تمنعه من المناقشة عن طريق الإرهاب..

وحيث يتجه العقل – بوســــائل تفكــــيره- إلى الإيمان بأن الله الذي خلق كل شيء وقـدره تقـديراً هو غــني عن كل شــريك لأنه ((بيــده ملكــوت كل شــيء)) ولأنه يقـول للشــيء ((كن فيكـون)) ومن ثم فهو الجـدير بالعبـادة وحـده.. تقـول له الكنيسة إن هناك شريكاً لله هو المسـيح عيسى ابن مـريم عليه السلام، هو إله مع اللـه، ومعبـود كـذلك مع اللـه، ثم تمنعه من المناقشة وتتهمه بالمروق إن خالف..

وحيث يتجه العقل –بمنطقه الذاتي- إلى الإيمان بــأن الله ليس في حاجة إلى اتخــاذ الولــد- والخلق كلهم خلقه خلقهم بمشيئته وهم عباد لـه- وليس من شأنه سبحانه أن يتخذ مالا حاجة له إلى اتخاذه، وهو المهيمن الذي يدبر أمر الوجود كله بمفرده، بلا كلفة عليه سبحانه ولا جهد ولا حاجة إلى معين.. تقـول له الكنيسة إن لله ولــداً خلقه بمشــيئته كما يخلق كل شــيء بمشـيئته ثم تبنـاه- سـبحانه وتعـالى عن ذلك علواً كبيراً- ليضعه بعد ذلك على الصــليب ، ويجرعه آلام الصلب، ليكفر بذلك عن خطيئة لم يرتكبها ذلك الابن إنما ارتكبها آدم وحــــواء قبل ذلك بــــزمن لا يحصيه إلا الله ! ثم تفـرض عليه ذلك فرضـاً وتقـول

له هـذه هي العقيـدة .. ومن لم يعتقـدها فقد حلت عليه لعنة السماء .

تلك هي المسـلمات الـتي لا يمكن التسـليم بها لأن العقل يملك كل دليل ينفيها، ولأنها لا تسـتند إلى شيء إلا قرارات المجامع المقدسة التي تبتدعها من عند نفســها وتــزعم مجــرد زعم أنها من عند اللــه، بينما النـاس يـرون رجـال الـدين في تلك المجـامع يتناقشــون وتحــاورون ، ويختلفــون فيما بينهم أشد الاختلاف ، ثم يصدرون القرار من تفكيرهم الذاتي – ولو كان وحيـاً سـماوياً لالـتزموا به عقيـدة ولم يجز لهم الاختلاف فيه- ثم يرون أسوأ من هـذا أن الأقلية تصدر القرار أو تفرضه فرضاً على الأكثرية ثم تطرد الأكثرية بالقوة كما حـدث في مجمع خلقدونيـة.. ولا تطردهم من المجمع فحسب ، بل تـزعم كـذلك أنها تطردهم من رحمة الله! .

ومن أجل أن هـــذه المســـلمات المزعومة لا يمكن للعقل التسليم بها فقد حظـرت الكنيسة على العقل أن يفكر فيها أو يناقشـها، وزعمت للنـاس أن التفكـير فيها منـاف للإيمـان ، وأن الموقف الصـحيح للمؤمن هو التسليم بها بغـير جـدال، وتفـويض الأمر فيها لا –للـــــه!- بل ((لقداسة)) البابا ومن حوله من ((كبار)) رجال الدين!.

وفي ظل الإرهــاب الفكــري الــذي مارســته الكنيسة انكمش نشاط العقل الأوروبي وانحصر في التســليم بما تمليه الكنيسة والمجــامع المقدســة، ومحاولة التوفيق بينه وبين مقتضـــيات التفكــــير السـليم، في مغالطـات ((فلسـفية)) هي أقـرب إلى التلفيق منها إلى التوفيق!.

ومن ناحية أخــرى انصــرف الفكر الأوروبي عن النظر في هذا العـالم وفي الحيـاة الـدنيا بتـأثير آخر من تــأثيرات الــدين الكنسي المحــرف. فقد أوحت المســيحية المحرفة إلى النـاس بـأن هـذه الـدنيا لا ســبيل إلى إصــلاحها أو تقــويم معوجها لأنها ناقصة بطبيعتهـا، وأن الطبيعة الإنسـانية ناقصة كـذلك ، ولا سبيل إلى إصلاحها إلا بصرفها عن الاهتمـام بالحيـاة الــــدنيا جملــــة، وصــــرف اهتمامها إلى اليــــوم الآخر......... وأنه بقدر ما ينصرف الإنسان عن هــذا العـالم والتفكـير فيه –بالرهبانيـة- يكـون أقـرب إلى الصلاح ، وأقرب إلى الفوز بملكوت الرب في العالم الآخر .

هـذا اللـون من التفكـير صـرف الفكر الأوروبي عن النظر في شئون العالم الأرضي والكون المـادي في أضيق نطاق مستطاع. ففي أمــور الحيـاة رضي الناس عامة – والمتدينون خاصة- بعيش الكفاف [1] ، ولم يتطلعـوا إلى زيـادة الإنتـاج أو تحسـينه لأن ذلك يخالف روح الدين. ومن ثم لم يسعوا إلى زيـادة في العلم تمكنهم من زيادة الإنتاج أو تحسينه.

كذلك لم يهتمـوا بزيـادة معلومـاتهم عن الكـون المادي من حولهم من فلك أو رياضيات أو كيمياء أو فيزيــاء.. إلخ، لأن الأمر – في حســهم – لا يســتحق الاهتمـام من ناحيـة، ولأن المعلومـات الـتي تقـدمها المصادر «الدينية» عن هذا الكون فيها كفاية لهم من ناحية أخرى. ولم تكن تلك المعلومـات تعـدو أن الله خلق الأشياء على صورتها لحكمة هو يعلمهــا، ولغاية هو يريـدها، وأن كل شـيء يجـري على النحو الـذي

---

[1] (?) ما عــدا الإقطــاعيين بطبيعة الحــال! ومع ذلك فقد كــانت الكنيسة تساندهم – بكل جشعهم وظلمهم- لأنها هي ذاتها كانت قد أصـبحت من ذوات الإقطاع .

أراده الله منذ الأزل بلا تغيير، وهـذا في ذاته حق ولا شـك، ولكنه لا يعطي التفسـير التفصـيلي لظـواهر الكون المـادي المحيط بالإنسـان! ولا ما يحـدث من التحول الدائم في الكون والحياة والإنسان!..

على هـذا النحو الضـيق المغلق المحصـور كـان الفكر الأوروبي فيما يســمى – هنــاك – بالعصــور الوسـطى المظلمـة، الـتي اسـتمرت زهـاء عشـرة قرون، خيم فيها على أوروبا ظلام الجهل والانحصـار ، في ظل الطغيـــان الكنسي المتعـــدد الألـــوان المتشعب الأطراف .

فلما بـــدأت أوروبا تفيق في عصر النهضة نتيجة احتكاكها بالمســلمين في الحــروب الصــليبية من ناحية، والاتصال السـلمي بمراكز العلم والثقافة في الأندلس والشمال الأفـريقي وصـقلية وغيرهـا، كـان العقل الأوروبي في حالة تشــوق عــنيف لاســترداد حريته في العمـــل، أي حرية التفكـــير. ولكن، كما اتسمت فترة العصور الوسـطى المظلمة بـالتطرف في إلغاء دور العقل والحجر على حرية الفكر، كذلك اتســمت فــترة النهضة وما بعــدها بـــالتطرف في الجانب الآخـر، جـانب إعمـال الفكر في كل شـيء ، سواء كان داخلاً في مجال العقل أو غير داخل فيـه، وإعماله ((بحرية)) لا تقبل القيــد، ســواء كــان القيد مشروعاً أو غير مشروع!.

كـــان عصر ((الإحيــاء)) هو عصر العـــودة إلى الجاهلية الإغريقية بكل انحرافاتها .. مع زيـــــــادة انحــراف جديد .. هو النفــور من الــدين . ومحاولة إبعـاده عن كل مجـال من مجـالات الحيـاة والحقيقة أن الحيـاة الأوروبية في تلك الفـترة تسـتلزم نظـرة فاحصة تقف على التيارات والعوامل المختلفة الـتي

كانت تمور في كيانهـا. والـتي تمخضت فيما بعد عن الصورة الحالية ((للحضارة)) الغربية.

لقد أخـذت أوربا في نهضـتها شـيئاً كثـيراً من الإسـلام والمسـلمين، ورفضت في الـوقت ذاته أن تعتمد الإسلام ديناً وعقيدة ومنهج حياة .

وكان من جراء ذلك آثار بعيدة المدى في الحياة الأوربية إلى وقتنا الحاضر..

فقد صحت أوربا من غفوتها الطويلة بالاحتكـاك الحربي والسلمي بالمسلمين في الشرق والغرب.

وتـــزعم أوربا أنها لم تأخذ عن المســـلمين إلا الـــتراث الإغـــريقي الـــذي كـــانت قد أضـــاعته في عصورها المظلمة، فوجدته محفوظاً عند المسـلمين فاستردته ، وأقامت نهضتها على أساسه.

وفي هـذا الـزعم شـيء قليل من الحق وشـيء كثـير من المغالطة الـتي لم ينج منها إلا عــدد قليل من كتاب أوربا المنصفين.

فأما أن التراث الإغريقي الــذي فقدته أوربا في عصورها المظلمة كان محفوظاً عند المسلمين فيما يسمى ((الفلسفة الإسلامية)) وفي التراجم التي كـان المســـلمون قد ترجموها عن الإغريقيـــة، وأن أوربا اسـتردته عن طريق التعلم في مـدارس المسـلمين وأقامت جانباً من نهضتها عليه .. فهذا صحيح.

ولكن هـذا الـتراث الإغـريقي ، على كل اعـتزاز أوربا به وتعصبها له، لم يكن صـالحاً –وحـده- لإقامة النهضة الأوربية ، ولا أي نهضة على الإطلاق ، باعتبـــاره مجموعة من (الأفكـــار)) التجريدية الذهنية المنقطعة عن واقع الحيـــــــــاة. وهو –بكل لمعانه الفكري- لم يستطع أن يلائم الحياة في بيئته الأصلية الـتي أنبتتـه، فضـلاً عن أن يكـون – وحـدة- بـاعث

نهضة جديـدة على اتسـاع أوربا كلهـا، وعلى اتسـاع العالم كله في العصر الحديث!.

نعم، يوجد في هـذه الأفكـار قيم ومبـادئ يمكن أن تكون زاداً لقوم ((يرغبون)) في الحيـاة، ويرغبـون في إقامة نهضة شـــاملة. ولكنها –وحـــدها- لا تبعث فيهم هذه الرغبة ولا تلك.

إنما الرغبة في الحيـــاة والرغبة في إقامة نهضة شـــاملة، كـــانت هي الأثر الـــذي أخذته أوربا من احتكاكها بالمسلمين، وملامستها للحياة المـوارة في العالم الإسلامي ، وللنهضة الشاملة فيه ..

وليس هـــذا فقط .. فـــإن أوربا لم تغنم من احتكاكها بالمسلمين تلك الرغبة في الحيـاة والحركة وإقامة النهضة الشـاملة فحسـب، بل وجـدت كـذلك ((مقومـــــات)) تلك النهضة بكاملها موجـــــودة عند المســـلمين، فأخـــذت منها كل ما وســـعها أخـــذه، والعنصر الذي رفضت أخذه –وهو الإسـلام- كـان هو العنصر الوحيد القمين بترشـــــيد تلك النهضة وإقالة أوربا من عثرتها.. ولكنها رفضت –بدافع من العصبية الصـــليبية – فخســـرت العنصر الجـــوهري، وأقـــامت نهضة عرجاء.. هي التي يعاني منها اليوم كل سـكان الأرض!.

نعم، لم تكن رغبة الحياة ورغبة النهوض وحـدها هي كل ما أخذته أوربا عن المسلمين .

لقد كـــانت أوربا في جهالة تامة من كل علم إلا ما تملكه الكنيسة ورجـــــال دينها من معلومـــــات سطحية معظمها محشو بالأخطاء .

وعند المســـــلمين وجـــدوا ((العلم)) .. في كل مجـــــالات العلم.. في الطب والفلك والرياضـــــيات والفيزيـــاء والكيميـــاء إلى جـــانب العلـــوم الدينية

الإسلامية الـتي كـانت تـدرس – جنبـاً إلى جنب- في الجامعات الإسلامية.

وقد قــال ((روجر بيكــون)): ((من أراد أن يتعلم ، فليتعلم العربية، فإنها هي لغة العلم)).

ونضـيف هنا قولة ((ألفـارو القرطـبي)) قبل ذلك بقرون في الأنـدلس: ((يطـرب إخـواني المسـيحيون بأشــعار العــرب وقصصــهم، فهم يدرســون كتب الفقهــاء والفلاســفة المحمــديين لا لتفنيــدها، بل للحصول على أسـلوب عـربي صـحيح رشـيق. فـأين تجد اليــوم علمانيــاً يقــرأ التعليقــات اللاتينية على الكتب المقدســة؟ وأين ذلك الــذي يــدرس الإنجيل وكتب الأنبيــاء والرســل؟ وا أســفاه ! إن شــباب المسيحيين الـذين هم أبـرز النـاس مـواهب، ليسـوا على علم بــأي أدب ولا أية لغة غــير العربيــة، فهم يقرأون كتب العرب ويدرسـونها بلهفة وشـغف، وهم يجمعون منها مكتبات كاملة تكلفهم نفقـات باهظة ، وإنهم ليترنمون في كل مكـان بمـدح تـراث العـرب. وإنك لتراهم من الناحية الأخـرى يحتجـون في زراية إذا ذكرت الكتب المسيحية بـأن تلك المؤلفـات غـير جــديرة بالتفــاتهم . فــواحر قلبــاه! لقد نسي المســيحيون لغتهم، ولا يكــاد يوجد منهم واحد في الألف قـادر على إنشـاء رسـالة إلى صـديق بلاتينية مسـتقيمة! ولكن إذا اسـتدعى الأمر كتابة بالعربية ، فكم منهم من يسـتطيع أن يعـبر عن نفسه في تلك اللغة بــأعظم ما يكــون من الرشــاقة، بل لقد يقرضون من الشعر ما يفوق في صـحة نظمه شـعر العرب أنفسهم)) [1] .

---

[1] (?) حضارة الإسلام ، جرونيباوم، ص 81-82 من الترجمة العربية .

ولم يكن العلم وحـده هو الـذي أخذته أوربا عن المســلمين بجــانب الرغبة في الحيــاة والرغبة في النهـوض؛ إنما أخـذت كـذلك المنهج الـذي تقيم عليه العلم، وهو المنهج التجريبي.

يقــول بريفــولت في كتــاب ((بنــاء الإنســانية)) ((فالعالم القديم –كما رأينا- لم يكن للعلم فيه وجود. وعلم النجوم عند اليونان ورياضـياتهم كـانت علومـاً أجنبية اســتجلبوها من خــارج بلادهم وأخــذوها عن ســواهم، ولم تتــأقلم في يــوم من الأيــام فتمــتزج امتزاجــاً كليــاً بالثقافة اليونانية . وقد نظم اليونــان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريـات. ولكن أســاليب البحث في دأب وأنــاة، وجمع المعلومــات الإيجابية وتركيزها ، والمنــــاهج التفصــــيلية للعلم، والملاحظة الدقيقة المستمرة ، والبحث التجريــبي ، كل ذلك كان غريباً تماماً عن المزاج اليوناني. أما ما نــدعوه ((العلم)) فقد ظهر في أوربا نتيجة لــروح من البحث جديـدة، ولطـرق من الاستقصـاء مسـتحدثة، من طـرق التجربة والملاحظة والمقـاييس، ولتطـور الرياضـيات إلى صــورة لم يعرفها اليونــان.. وهــذه الــروح، وتلك المنــاهج العلميــة، أدخلها العــرب إلى العالم الأوربي)) [1].

كذلك لم يكن العلم وحـده ولا المنهج التجريـبي وحده .. يقـول .. بريفـولت: ((لقد كـان العلم أهم ما جـادت به الحضـارة العربية (يقصد الإسـلامية) على العالم الحديث، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج.. إن العبقرية الـتي ولـدتها ثقافة العـرب في أسـبانيا، لم تنهض في عنفوانها إلا بعد وقت طويل من اختفــــاء تلك الحضــارة وراء ســحب الظلام . ولم يكن العلم

[1] (?) عن كتــاب ((تجديد الفكر الــديني)) تــأليف محمد إقبــال ، ترجمة عباس محمود، ص 250 من الترجمة العربية.

وحده هو الذي أعاد أوربا إلى الحياة. بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مـؤثرات الحضـارة الإسـلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربيـة. فإنه على الـرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحـدة من نـواحي الازدهـار الأوربي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مـؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة، فإن هـذه المـؤثرات توجد أوضح ما تكـــون وأهم ما تكـــون ، في نشـــأة تلك الطاقة الــتي تكــون ما للعــالم الحــديث من قــوة متمايزة ثابتة، وفي المصدر القوي لازدهاره: أي في العلوم الطبيعية وروح البحث العلمي)) [1] .

ويطول بنا الاستطراد لو رحنا نحصي بالتفصــيل ما أخذته أوربا في بـــــدء نهضـــــتها من الإســــلام والمســلمين ، ولكنا نعــود إلى موضــوعنا الأصــيل فنقـول إن أوربا أخـذت ما أخـذت ولكنها رفضت أن تأخذ الإسـلام ذاته عقيـدة ومنهج حيـاة، وعـادت إلى الجاهلية الإغريقية والرومانية تستمد منهما بــدلاً من الدين الكنسي الذي لفظتـه، والـدين الصـحيح الـذي رفضت بدافع العصبية أن تدخل فيه. ومن ثم عـادت – كما قلنا – إلى العقلانية اليونانية بزيــادة انحــراف جديد هو النفور من الدين والسـعي إلى إخراجه من مجالات الفكر والحياة .

لقد كــــــــانت الجاهلية الإغريقية جاهلية وثنية خالصة في واقع حياتهــــا، ولكن ((المفكــــــرين)) و ((الفلاسفة)) فكروا في الله سبحانه وتعالى، وحـاولوا تصوره على قدر ما اجتهـدت عقـولهم، فاهتـدوا إلى وحدانيته وكماله وجلاله، ولكن تشـعبت بهم الظنـون في متاهات لا قرار لها حين أخذوا يصـفون كنة هـذا الكمال وهذا الجلال ، كما مر بنا من تصور أرسطو.

---

[1] (?) المصدر السابق ، ص 149.

أما جاهلية عصر الإحيــــاء وعصر النهضة فقد ســخرت ((عقلها)) في كيفية الاســتغناء عن الله ، وإخراج موضـوع الألوهية من ميـادين الفكر والحيـاة واحداً إثر الآخر .

كـان ((التفكـير الحر)) معنـاه الإلحـاد! ذلك أن التفكـير الـديني معنـاه الخضـوع للقيد الـذي قيـدت الكنيسة به العقل وحجـرت عليه أن يفكر . فمعـنى الحرية الفكرية هو تحطيم ذلك القيد الـــذي يغل العقل من التفكـــير. ولم يكن أمـــام أوربا بعد أن رفضت الإسـلام إلا ذلك السـبيل الواحد إلى الحرية الفكرية .. وهو الخروج على الدين! .

يقول برنتون في كتـاب ((منشأ الفكر الحـديث)) (ص 103 من الترجمة العربية – ترجمة عبد الـرحمن مـراد): ((فالمـذهب العقلي يتجه نحو إزالة الله وما فوق الطبيعة من الكون.. فإن نمو المعرفة العلمية وازدياد الاسـتخدام البـارع للأسـاليب العلمية يرتبط بشدة مع نمو الوضع العقلي نحو الكون..)) .

ويقول عن قانون السـببية الـذي كشـفه نيـوتن: ((إن السببية تهدم كل ما بنته الخرافـات والإلهامـات والمعتقدات الخاطئة (يقصد المعتقدات الدينيـة) في هذا العالم)) (ص 151 من المرجع السابق) .

ويقـول : ((الإله في عـرف نيـوتن أشـبه بصـانع الساعة ولكن صانع هـذه السـاعة الكونية ونعـني بها الكـــون، لم يلبث أن شد على رباطها إلى الأبـــد، فبإمكانه أن يجعلها تعمل حتى الأبد.

((أما الرجال على هذه الأرض فقد صممهم الإله كـأجزاء من آلته الضـخمة هـذه ليجـروا عليها . وإنه ليبدو أن ليس ثمة داع أو فائدة من الصلاة إلى الإله

صــانع هــذه الســاعة الضــخمة الكونية ، الــذي لا يستطيع إذا ما أراد التدخل في عمله)) !! .

ولنا وقفة عند هـــذه النصـــوص.. إن الاتجـــاه الفكـري النـافر من الـدين، المتجه إلى الإلحـاد، لم يكن رد فعل لخطأ واحد من أخطـــــاء الكنيسة وهو الحجر على العقل خوفـاً من مناقشة ((المسـلمات)) المفروضــة، إنما كـان في الحقيقة رد فعل أو نتيجة لأخطـاء متعـددة في وقت واحـد.. فالجهالة العلمية الــتي عانتها أوربا عــدة قــرون في ظل الســيطرة الكنســية جعلت للعلم –حين بـدأت أوربا تتعلم- فتنة ليست من طبيعته في الأحوال العادية وفي النفوس السوية، فضلاً عن أن حرب الكنيسة للعلم والعلمـاء في عهد النهضة – باسم الـــــــدين – جعلت طريق البحث العلمي هو طريق معاداة الدين .

إن الدين والعلم ليسا ندين متنـافرين متعـاديين كل منهما يســعى للســيطرة على حســاب الآخر ورغمـاً عنـه! فنزعة العبـادة ونزعة المعرفة كلتاهما نزعة فطريــة، والفطــرة – في النفس الســوية- لا يتنــافر بعضــها مع بعض ، إنما تتعــارض جوانبها المختلفة لبنــاء الشخصــية الســوية المتوازنة . وقد تختل الشخصــية لزيــادة أو نقص في أحد الجــوانب بالقيــاس إلى حـــده المفـــروض، وبالقيــاس إلى الجوانب الأخرى في النفس، ولكنها لا تختل قط من اجتمـاع جـوانب الفطـرة كلها في النفس، فهـذا هو الأمر الطـبيعي الـذي لا تسـتقيم النفس بدونـه، بل العكس هو الصحيح . تختل النفس خللاً مؤكـداً حين يزاح جانب من جوانب الفطرة أو يضمر ليحل محله جانب آخر .

وفي العالم الإسلامي الـذي اسـتقت أوربا العلم منه ، كـان هـذا هو الأمر الواقـع: كـان الـدين والعلم يعيشان معاً متساندين متعـاونين بلا تنـازع ولا تنـافر ولا خصام. بل كـان العلم في حقيقة الأمر نابعـاً من العقيـدة منبثقـاً عنهـا، يعمل في خـدمتها، ومع ذلك كـان له ذلك المجـال الواسع كله الـذي يعمل فيـه، والحرية الـتي يمارسـها في البحث وتحصـيل النتـائج وتدوينها، والثمـار العملية المفيـدة الـتي تقـوم عليها نهضة علمية زاهرة.

ولم يكن للعلم في نفـوس المسـلمين فتنـة! لا هو فتنهم عن الدين، ولا صار في حسهم إلهـاً مكـان الله ! لأنهم كـــانوا يتناولونه كما تتناوله الفطـــــرة السوية، التي تأخذ حظها من العبادة كما تأخذ حظها من المعرفة العلميــة، وتطلب هــذه وتلك بلا تنــافر بينهما ولا صدام!.

وقد كان العالم الواحد – في كثير من الأحيان – عالمـــاً في الطب أو الفلك أو الرياضـــيات .. الخ ، وعالماً بالعلوم الدينية في نفس الوقت، متبحراً في هذه وتلك، متوازناً في ذات الوقت، لا يصرفه الـدين عن العلم ولا يصرفه العلم عن الدين.

وكان الحسن بن الهيثم – على سـبيل المثـال – الـــذي ظلت أوربا تـــدرس نظرياته في علم الضـــوء (البصــريات) إلى بداية القــرن التاسع عشر لتفوقها وتقدمها الباهر، والذي أثبت ملاحظة كـانت بالقيـاس إلى وقته من أعجب العجب، وهي انحنـــاء الشـــعاع الضوئي عند ملامسـته جسـماً منحنيـاً وعـدم سـيره في خط مسـتقيم[1]- كـان على كل عبقريته العلمية

[1] (?) وفسر بذلك أننا نرى الشمس قبل ظهورها الحقيقي بدقائق، ونظل نراها بعد غروبها بـدقائق! وفي القــرن العشــرين اكتشف أنشـتين أن الضـوء في الكـون الواسع لا يتخذ مسـاراً مسـتقيماً بل ينحـني حـول

تلك يقدم إنتاجه العلمي باسم اللـه، ويحمـده ويثـني عليه ويشكره على فيض نعمه عليه!.

كلا! لم يكن العلم عند المسلمين مثاراً للفتنــة، لأنهم صــاحبوه عــدة قــرون على رزانة وروية فلم يفاجئوا به كما فوجئت أوربا في عصر النهضة، ولأنه نبع في حيــاتهم من نبع الــدين فلم يــثر بينه وبين الدين ذلك الخصـام الـذي ثـار بين الـدين والعلم في أوربــا، ولأن المعرفة كلها في حس المســلم نفحة ربانية يفتح بها على عباده، فيكـون جزاؤها في حسه مزيـداً من التقـرب إلى اللـه، لا بعـداً عنه وازورارا عن عبادتـه. كـذلك كـان اكتشـاف قـانون السـببية بالذات باعثاً من بواعث الإلحاد.

والمســؤول في ذلك أيضــاً هو الكنيسة ! لقد ظلت الكنيسة تصرف الناس عن العلم عدة قــرون، وتــوحي إليهم بالاكتفــاء بما عنــدها هي من العلم، الــــذي لم يكن يتجــــاوز –كما قلنا – أن الله خلق الأشـياء على صـورتها لحكمة يعلمها ولغاية يريـدها.. أي إرجاع الأمـور كلها والظـواهر كلها إلى إرادة الله ومشيئته. ومن شأن الدين أن يركز دائمــاً على هـذا المعنى. انظر إلى بعض ما جـاء في القـرآن الكـريم في هذا الشأن : **(وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الــرحمن الــرحيم. إن في خلق الســماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجـري في البحر بما ينفع النـاس وما أنــزل الله من السماء من مـاء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصــــــــريف الريــاح والســحاب المســخر بين الســماء والأرض لآيـات لقـوم يعقلـون) (وهو الـذي**

الأجرام السماوية بفعل الجاذبية.

أنزل من السـماء مـاء لكم منه شـراب ومنه شـــجر فيه تســـيمون ينبت لكم به الـــزرع والزيتـــــون والنخيل والأعنـــــاب ومن كل الثمـرات. إن في ذلك لآية لقـوم يتفكـرون. وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمـر. والنجوم مسخرات بأمره. إن في ذلك لآيـات لقــــوم يعقلـــون. وما ذرأ لكم في الأرض مختلفـــاً ألوانـــه. إن في ذلك لآية لقـــوم يذكرون. وهو الذي سـخر البحر لتـأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسـونها. وترى الفلك مواخر فيه. ولتبتغوا من فضـله ولعلكم تشـــــــــــكرون. وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم. وأنهـاراً وسـبلاً لعلكم تهتــدون. وعلامــات وبــالنجم هم يهتــدون. أفمن يخلق كمن لا يخلـــق؟ أفلا تـــذكرون. وإن تعـــدوا نعمة الله لا تحصـــوها. إن الله لغفور رحيم).

وحكمة ذلك واضحة.. ((فالـدين)) يـذكر الإنسـان دائمـــاً بالله لكي يظل قلبه معلقـــاً بالله في جميع حالاته، فيحبه ويخشـاه، ويتطلع إليه في كل أمر من أموره. وبهذا وحده تصلح نفس الإنسـان وتسـتقيم.. ولأن الإنسـان عرضة دائمـاً أن ينسى فـإن الـدين الصـحيح يلح في تـذكيره حـتى لا تدركه الغفلة الـتي ينشأ عنها كل شر في حياة البشر على الأرض.

ولكن هـذا التركـيز الشـديد في الـدين الصـحيح على رد الأمـــور كلها إلى مشـــيئة اللـــه، لم يمنع المسـلمين من البحث عن ((الأسـباب الظـاهرة)) في الكون المادي وفي الحيـاة البشـرية، بلا تعـارض في حسهم بين هذا وذاك.

وذلك أن الدين الصحيح –وقد رد كل شيء بحق إلى مشـيئة الله وقـدره[1]-نبه البشر إلى أن هنـاك سـنناً كونية تعمل إرادة الله من خلالها في الكـون المادي، كما أن هناك سـنناً أخـرى تعمل تلك الإرادة من خلالها في الحياة البشرية، ودعاهم إلى التعـرف على هذه وتلك، الأولى ليقوموا بتعمير الأرض – وهو جـزء من مهمة ((الخلافة)) الـتي خلق الإنسـان من أجلها – والأخرى لتكون هذه الخلافة راشدة حين يتم تعمير الأرض بمقتضى المنهج الرباني .

لقد ظل القرآن يلفت نظر الناس إلى آيات الله في الكـون وانتظامها ورتابتها ودقتها وانضـباطها: **(ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شـاء لجعله سـاكناً. ثم جعلنا الشـمس عليه دليلاً. ثم قبضـناه إلينا قبضـاً يسـيراً) (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبـاً فمنه يـأكلون. وجعلنا فيها جنـات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون. ليأكلوا من ثمـره وما عملته أيـديهم. أفلا يشـكرون. سـبحان الـذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسـهم ومما لا يعلمـون. وآية لهم الليل نسـلخ منه النهـار فـإذا هم مظلمـون. والشـمس تجـري لمسـتقر لهـا. ذلك تقـدير العزيز العليم. والقمر قـدرناه منـازل حـتى عـاد كـالعرجون القـديم. لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسـبحون) (وفي الأرض آيـات للموقـنين. وفي أنفسـكم أفلا تبصـرون)** وفهم المسـلمون من هـذه التوجيهـات

---

[1] (?) يقول تعالى : **(إنا كل شيء خلقناه بقدر)** سورة القمر: 49.

المتكررة أن الله يدعوهم إلى التأمل في هذا الكون من حولهم، ليتعرفوا على قدرة الله القادرة الـتي لا يعجزها شيء، وليتعرفوا كـذلك على السـنن الربانية التي أودعها في هذا الكون، والطاقات التي سـخرها لهم فيه ليقومـوا بعمـارة الأرض، ويبتغـوا من فضل الله : (**وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلمـوا عـدد السـنين والحسـاب وكل شـيء فصـلناه تفصـيلاً) (ما تـرى في خلق الرحمن من تفـاوت. فـارجع البصر هل ترى من فطور)** ومن ثم انطلقوا «يدرسون» هـذا الكـون ويتعرفـون على أسـراه.. فتقـدم العلم على أيديهم تقدماً ضخماً، في الفيزيـاء والكيميـاء والفلك والرياضـــيات والطب وغيرها من العلـــوم النظرية والتجريبيـة.. واكتشـفوا – من بين ما اكتشـفوا – أن هناك سبباً لكل شيء يحدث في الكون المادي، من نور وظلام، وكسوف وخسوف، ورياح ومطر، وجدب وخصب وزيادة ونقص.. الخ .. الخ .

ولكن اكتشـاف «السـبب الظـاهر» لم يكن فتنة لهم كما كـــان بالنســـبة لـــنيوتن ومن بعـــده من «العلماء» ! .

فلم يجعلوه بديلاً من السبب الحقيقي وهو الله ســبحانه وتعــالى، ولم يســتغنوا به عن الله ، ولم يتصـــوروا أن له حتمية تقيد مشـــيئة الله الطليقة بحيث يعجز ســبحانه عن التصــرف في الكــون بما يشاء، كما توهم نيوتن ومن بعده.

إنما عرفوا أن هذا «السبب الظاهر» هو «السنة الجارية» الـتي تجـري شـئون الكـون المـادي من خلالهـا، ومن ثم فهي ليست بـديلاً من الله سـبحانه

وتعــالى، وهي جــزء من مشــيئته، ولا تعــارض بين تفسير أي أمر من أمور هـذا الكـون بسـببه الظـاهر وتفسيره بأنه راجع إلى مشيئة اللـه، ما دام السـبب الظاهر أو ((السنة الجارية)) من مشيئة الله، ومن ثم فلا تعارض بين ما سـموه ((الطبيعة)) وما سـموه ((ما وراء الطبيعة)) بحيث يمتنع عليك الإيمـان بهـذه وتلك في آن واحد كما تـوهمت عقلانية ما بعد النهضة في أوربــا، نتيجة أن ما وراء الطبيعة في ظل السـيطرة الكنســية والحجر على العقل كــان ينفي الأســباب الظاهرة أو لا يعـول عليها في تفسـير أمر من أمـور الكون، وأن اكتشاف ((السبب الظـاهر)) جـاء في جو من العـــداء للـــدين والكنيســـة، فوضع – من ثم – مناهضاً ومعادياً لما وراء الطبيعـة، بالإضـافة إلى أن القـــوم هنـــاك ظلـــوا – في ظل الإيمـــان بما وراء الطبيعة على الطريقة الكنســـية – في جهل مطبق بكثـــير مما يحيط بهم في هـــذا الكـــون، بينما جـــاء اكتشـاف السـبب الظـاهر في وسط معلومـات عن هذا الكون، وكما لم تكن معرفة المسلمين المبكـرة بالأسباب الظاهرة وثبـوت السـنة الجارية مانعـاً لهم من الإيمـــان بـــالمعجزات الـــتي جـــاءت في الكتب المنزلـة، كـذلك لم يكن إيمـانهم بـالمعجزات داعيـاً إلى الخرافـــة، ولا الاعتقـــاد بـــأن الكـــون فوضى لا يضـــبطه ضـــابط ولا يربطه نظـــام. و((العلم)) الـــذي أخرجوه هو البرهان على ذلك . فقد كـان هـذا العلم من الدقة والانضـباط –بحسب المتــاح في وقته من الأدوات- لدرجة شـــهد لها كل منصف في التـــاريخ . ولكه شاهد بأن المسـلمين كـانوا يتعـاملون مع هـذا الكون على أسـاس أن هنـاك نظامـاً دقيقـاً يربطـه. نظاماً من ((الأسباب)) و ((النتـائج)) معجز بدقتـه، رائع

بانضـــباطه: (**ما تـــرى في خلق الـــرحمن من تفاوت. فارجع البصر هل ترى من فطور**) ؟ .

إنما كـانوا على ((التــوازن)) الـذي علمهم إيـاه الإســـلام.. أما ((عقلانية)) النهضة وما بعـــدها فقد خـــرجت على النـــاس بـــأمور، غـــير معقولة ((على الإطلاق.. من نفي لوجـود الله تـارة، ومن إثبـات له تارة أخرى مع نفي قدرته على التصـرف، ومن جعل الســبب الظــاهر بــديلاً من الســبب الحقيقي، ومن جعل ثبـوت الأسـباب الظـاهرة حتميـات [1] تفـرض نفسها على مشيئة الله !.

ودار الـزمن دورة أخـرى فـانتقلت أوربا – فيما يقال – من سـيادة العقل إلى سـيادة الطبيعـة، حين كشف العلم مزيــــداً من أســــرار الكــــون واقتنع ((المفكرون)) أن الأصل الـذي ينبغي الرجـوع إليه هو ((الطبيعة)) لأنها هي الـــتي تنقش في العقل ما يتولد فيه من أفكار. فليس مصدر المعرفة إذاً هو الــوحي الرباني –وقد نبذوه وراءهم ظهرياً سواء منه ما كان حقيقياً بلا تحريف، وما اخترعته الكنيسة من عنـدها، وقــالت إنه من وحي الله – ولا هو العقل ، الـــذي لا ينشئ – ولا ينبغي له أن ينشئ – شـــيئاً من عنـــده، إنما هو الطبيعـــة: هو عــــالم الحس.. هو الحقيقة الموضوعية..

يقــول الــدكتور محمد البهي في تلخيصه الجيد الذي نقلناه من قبل عن الفلسفة الوضعية وتقديرها للطبيعة : ((ومعنى تقـديرها للطبيعة على هـذا النحو أن الطبيعة – في نظرها – هي الــتي تنقش الحقيقة في ذهن الإنســـان وهي الـــتي تـــوحي بها وترسم

---

[1] (?) ثاب العلم أخـيراً إلى أنه لا توجد ((حتميـات)) فيما سـموه ((قـوانين الطبيعة)) إنما هي ((احتمالات)).

معالمها الواضـحة. هي الـتي تكـون عقل الإنسـان، والإنسان –لهذا- لا يملى عليه من خارج الطبيعة، أي لا يملى عليه مما وراءهـــا، كما يملى عليه من ذاته الخاصـــة، إذ ما يـــأتي من ما وراءٍ الطبيعة خـــداع للحقيقة وليست (هي) حقيقة أيضاً! .

وبناء على ذلك يكـونٍ ((الـدين)) – وهو وحي (أي ما بعد الطبيعـة)- خـداعاً ! وهو وحي ذلك الموجـود الـذي لا يحـده ولا يمثله كـائن من كائنـات الطبيعة . هو وحي الله الخارج عن هذه الطبيعة كلية.. وكذلك (المثالية العقلية)) وهم لا يتصل بحقيقة هـذا الوجـود الطبيعي . إذ هي تصورات الإنسان من (عند) نفسه، من غـير أن يسـتلهم فيها الطبيعة المنثـورة الـتي يعيش فيها وتدور حوله.

إن عقل الإنسان في منطق هذه الفلسفة – أي ما فيه من معرفـــة- وليد الطبيعة الـــتي تتمثل في الوراثة والبيئة والحيـاة الاقتصـادية والاجتماعية . إنه مخلوق، ولكن خالقه الوجود الحسي)) [1] .

ولقد يفهم من هذا لأول وهلة أن العقلانية الـتي تتبعنا أطوارها في عصر النهضة وما بعدها قد انتهت وحل محلها طور جديد لا يمت لها بصلة.. ولكن هـذا غير الواقع.

لقد تغـير الإله المعبـود عنـدهم بالفعل فلم يعد هو العقـل، وإنما صـار هو الطبيعة الـتي قـال عنها دارون ((الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق)).

ولكن الإله الجديد لم يقتل الإله الأول، ولم يخرجه من السـاحة ليحل محلـه. إنما قيـده فقط بقيـوده وأخضـعه لشـروطه، وإنما كـان قد شد على

---

[1] (?) 299-298 من كتاب ((الفكر الإسلامي الحديث)).

يديه في حـرارة مؤيـداً ومـؤازراً في نقطة واحـدة معينة هي نفي الإله الحقيقي – سـبحانه وتعـالى – وإخراجه نهائيـاً من السـاحة (نسـتغفر اللـه) ، وإن اختلفت زوايا الرصد واختلف ((المنطق)) المسـتخدم فالإله الأول –العقل- ينبذه بحجة أنه ((غير معقول))!! والإله الثاني –الطبيعة- ينبذه لأنه لا يدرك بالحس ولا يخضع للتجربة في المعمل!! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً..

إن المنهج التجريـبي الـذي تعلمته أوربا من المسلمين لم يؤت ثماره الظـاهرة في ميـدان العلم إلا في القـرن التاسع عشر على وجه التقـريب، ولكنه تحـول عنـدهم إلى فتنة طاغيـة.. لأن أوربا أخذته دون أن تأخذ القاعدة الإيمانية التي كان يقوم عليها عند المسلمين ، وهي قاعدته الأصـلية . فكأنه نبات انتزع من بيئته انتزاعاً وغرس في بيئة أخرى لا تناسب الأولى، ولا تشـبهها في مكوناتها ومقوماتهـا، فطال وارتفع ، ولكنه أثمر ثماراً شيطانية غير الثمار الطيبة التي كان يؤتيها من قبل.

ولم يشعر المسلمون أن تفكرهم في آيات الله في الكون من أجل إخلاص العبادة له، مـانع لهم من البحث عن السـنن الكونية الربانية من أجل عمـارة الأرض، ولم يشـعروا كـذلك أن البحث عن هـذه السنن من أجل عمـارة الأرض مـانع لهم من إخلاص العبادة لله. لأنه لا تعارض في الحقيقة . والله يقـول لهم: **(وابتغ فيما آتـاك الله الـدار الآخـرة ولا تنس نصيبك من الدنيا)** .

ولا نسـتطيع أن نختم الحـديث عن عقلانية الجاهلية ، والعقلانية المعاصـرة بصـفة خاصـة، قبل أن نشير إلى قولة عجيبة وردت في كتـاب من كتب

ســارتر، الكــاتب الوجــودي المعــروف، ذات صــلة بالموضوع ودلالة لا تحتاج إلى تعليق! وسارتر يهودي وإن كان كثير من الناس لا يعلمون ذلـك! يقـول في كتـاب (تـأملات في المشـكلة اليهوديـة: إن اليهـود متهمون بتهم ثلاث كبرى، هي عبادة الـذهب، وتعرية الجسم البشــري، ونشر العقلانية المضــادة للإلهــام الــديني، ويقــول إن التهم كلها صــحيحة ! ثم يــروح يقدم لكل منها ما يقدر عليه من المعاذير.

قال عن عبادة الذهب إن اليهود مضطهدون في كل الأرض وكل التــاريخ، وإنهم لابد أن يســعوا إلى امتلاك القوة ليقاوموا هذا الاضطهاد. والوسيلة التي لجئوا إليها هي الســعي إلى امتلاك الــذهب وتجميعه ليكون لهم عدة وقوة ! .

وقــال عن تعرية الجسم البشــري إن اليهــود متهمون بقبح أجسـامهم وعـدم اسـتقامتها؟ فـأرادوا أن يثبتــوا للبشــرية أن القبح كــامن في الجسم البشري ذاته لا في أجسام اليهود وحـدهم ! فعملـوا على تعرية الجسم البشري ليستيقن البشر من هذه الحقيقة ! (أرأيت إلى مــــدى الســــخف والتهافت.. ؟!) .

أما نشر العقلانية المضادة للإلهـام الـديني (كما ورد في الترجمة الإنجليزيـة) فقد كشف فيه الغطـاء دون مواربة ! قـال : إنه طالما كـان البشر يؤمنـون بالدين، فسيظل يقع على اليهود تميــيز مجحف على اعتبــار أنهم يهــود، أما إذا زال الــدين من الأرض ، وتعامل البشر بعقـولهم، فعقل اليهـودي كعقل غـير اليهودي، ويومئذ لن يتميز اليهود بكونهم يهـوداً، ولن يقع عليهم التمييز المجحف، وسيعيشـون في سـلام

مع غير اليهود)) (أي بعد أن يغطوا حقيقتهم ويندسـوا في وسط البشرية مبهمين بين الجموع!!) .

ومهما يكن في هـــذا الكلام من المغالطــــات المكشـــوفة الـــتي قصد بها التغطية على الأهــداف الحقيقية لليهــود من وراء هــذه الأفعــال (وهي نشر الفســاد في صــفوف الأمــيين لإفســاد عقائــدهم وأخلاقهم بالإضــافة إلى ســلب أمــوالهم ، لتيســير اسـتعبادهم للشـعب الشـرير) . فـإن ثبـوت التهمة بشهادة شاهد من أهلها أمر غني عن التعليق[1].) [2]

انتهى كلام الأســتاذ محمد قطب حفظه اللــه، وهو كلام – بطوله – نفيس بيّن لنا فيه مراحل تطور العقلانية عند الغربـيين إلى أن وصل بهم الحـال إلى إقامته –أي العقـــل- مقـــام الإله فهو المرجع وإليه المآب.

العقل عند المعتزلة:

أما عند أصحابنا من علماء الكلام (وأعـني بهم المعتزلة خاصة) فكيف تطورت أحوالهم حتى ضاهوا الشـرع بعقـولهم وجعلـوه حاكمـاً على النصـوص لا محكوماً لها؟

فـــــأقول : ((لما ظلمت الأرض وبعد عهد أهلها بنـور الـوحي وتفرقـوا في الباطل فرقـاً وأحزابـاً لا يجمعهم جـامع ولا يحصـيهم إلا الـذي خلقهم فـإنهم فقدوا نور النبوة ورجعوا إلى مجـرد العقـول فكـانوا كما قـــال فيما يـــروي عن ربه أنه قـــال : ((**إني خلقت عبادي حنفاء وأنهم أتتهم الشـياطين فاجتـــالتهم عن دينهم وحـــرمتْ عليهم ما**

[1] (?) مما يلفت النظر في هـذا الكتـاب أيضـاً قـول سـارتر إن تقسـيم فلسطين إلى دولة عربية يهودية لن يحل المشكلة اليهودية . إنما الحل هو نشر الشيوعية العالمية . وهو أيضاً قول لا يحتاج إلى تعليق.

[2] (?) مذاهب معاصرة (500-531) بتصرف .

أحللتُ لهم وأمــرتهم أن يشــركوا بي ما لم أنـــزل به ســـلطاناً وأن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عـــــربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب)) [1]. فكان أهل العقـول كلهم في مقته إلا بقايا متمســكين بـــالوحي فلم يســتفيدوا بعقولهم حين فقدوا نور الوحي إلا عبـادة الأوثـان أو الصلبان أو النيران أو الكواكب والشــمس والقمر أو الحـيرة والشك أو السـحر أو تعطيل الصـانع والكفر به فاستفادوا بها مقت الـرب سـبحانه لهم وإعراضه عنهم فـأطلع الله شــمس الرســالة في تلك الظلم ســـــراجاً منـــــيراً وأنعم بها على أهل الأرض في عقـــولهم وقلـــوبهم ومعاشـــهم ومعـــادهم نعمة لا يستطيعون لها شـكوراً فأبصـروا بنـور الـوحي ما لم يكونوا بعقولهم يبصرونه ورأوا في ضوء الرســالة ما لم يكونوا بآرائهم يرونه فكانوا كما قال الله تعـالى : **(الله ولي الذي آمنوا يخرجهم من الظلمـات إلى النــور)** وقــال: **(آلر كتــاب أنزلنــاه إليك لتخرج الناس من الظلمـات إلى النـور بـإذن ربهم إلى صـــراط العزيز الحميـــد)** وقـــال : **(وكذلك أوحينا إليك روحــاً من أمرنا ما كنت تــدري ما الكتــاب ولا الإيمــان ولكن جعلنه نـوراً نهـدي به من نشـاء من عبادنـا)** وقـال: **(أومن كـان ميتــاً فأحييـنـاه وجعلنا له نــوراً يمشي به في النــــــــاس كمن مثله في الظلمــات ليس بخــارج منهــا)** فمضى الرعيل الأول في ضوء ذلك النور لم تطفئه عواصف الأهواء ولم تلتبس به ظلم الآراء وأوصــوا من بعــدهم أن لا

---

[1] (?) رواه مسـلم (1598) وهـذا الحـديث دليل على دم العـرب ما لم يكن معهم إسلام .

يفارقوا النور الذي اقتبسوه منهم وأن لا يخرجوا عن طريقتهم)) [1] .

فكـــان من شـــأن الصـــحابة أنهم لم يقـــدموا عقـــولهم بين يـــدي الله ورســـوله بل كـــان دليل أحدهم إذا استدل إنما هو آية من كتاب الله أو ســنة رسوله . فهذا أبو سعيد الخدري رضي الله عنه لما سمع بمقالة ابن عبـاس رضي الله عنهما الأولى في الربا – قبل أن يرجع عنها – وهي حــديث (إنما الربا في النسـيئة) قـال أبو سـعيد له ((أرأيت هـذا الـذي تقول شيء سـمعته من رسـول الله أو وجدته في كتاب الله عز وجل ؟)) .

فهاتـــان هما الحجتـــان الملزمتـــان للنـــاس عند الصـــحابة: كتـــاب من الله أو ســـنة من رســـوله مصـــداقاً لقوله تعـــالى : (**يا أيها الـــذي آمنـــوا أطيعوا الله وأطيعـوا الرسـول**) وكـان أحـدهم رضي الله عنهم يغضب إذا عــورض حــديث رســول الله بقــول غــيره من البشر ولو كــان من حكمــاء اليونان! فقد جـاء في صـحيح مسـلم أن عمـران بن حصـين رضي الله عنه ذكر لأصـحابه حـديث رسـول الله أنه قـــال : ((الحيـــاء لا يـــأتي إلا بخـــير)) فقـــال أحدهم وهو بشير بن كعب ((أنه مكتــوب في الحكمة أن منه وقاراً ومنه سـكينة)) فقـال عمـران ((أحـدثك عن رســـول الله وتحـــدثني عن صـــحفك))! وفي رواية: فغضب عمران حـتى احمرتا عينـاه وقـال ((ألا أراني أحـدثك عن رسـول الله وتعـارض فيه)) قـال فأعـاد عمـران الحـديث. قـال فأعـاد بشـير. فغضب عمران قال فمازلنا نقول فيــه: إنه منا يا أبا نجيد إنه لا بأس به)) [2] قال النــووي ((وقــولهم إنه منا لا بــأس

---

[1] (?) الصواعق المرسلة لابن القيم (3/1068) .

[2] (?) مسلم بشرح النووي (2/7) .

به معناه ليس هو ممن يتهم بنفاق أو زندقة أو بدعة أو غيرها مما يخالف به أهل الاستقامة)) .

إذن فالصحابة لم يعارضوا ولم يرضوا بمعارضة حديث رسول بغيره من المعقولات، وإذا أشكل عليهم شيء من ذلك كانوا ((يوردون إشكالاتهم على النبي فيجيبهم عنها وكانوا يسألونه عن الجمع بين النصوص التي يوهم ظاهرها التعارض، ولم يكن أحد منهم يورد عليه معقولاً يعارض النص البتة، ولا عرف فيهم أحد -وهم أكمل الأمم عقولاً - عارض نصاً بعقله يوماً من الدهر، وإنما حكى الله سبحانه ذلك عن الكفار، كما تقدم، وثبت في الصحيح عن النبي أنه قال: ((**من نوقش الحساب عذب**))، فقالت عائشة: يا رسول الله، أليس الله يقول: **(فأما من أوتي كتابه بيمينه. فسوف يحاسب حساباً يسيراً)**. فقال: ((**بلى ولكن ذلك العرض ومن نوقش الحساب عذب**)) [1]، فأشكل عليها الجمع بين النصين حتى بين لها صلوات الله وسلامه عليه أنه لا تعارض بينهما وأن الحساب اليسير هو العرض الذي لابد أن يبين الله فيه لكل عامل عمله، كما قال تعالى: **(يومئذٍ تعرضون لا تخفى منكم خافية)**. حتى إذا ظن أنه لن ينجو نجاه الله تعالى بعفوه ومغفرته ورحمته فإذا ناقشه الحساب عذبه ولابد.

ولما قال : ((**لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة**)) قالت له حفصة: أليس الله يقول : (**وإن منكم إلا واردها**) قال : ((**ألم تسمعي قوله تعالى** (**ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً**))) فأشكل عليها الجمع بين النصين

---

[1] (?) رواه البخاري (فتح الباري 1/196،197)، ومسلم (4/2204) .

وظنت الـــورود دخولها كما يقـــال ورد المدينة إذا دخلها فأجـاب النـبي بـأن ورود المتقين غـير ورود الظالمين فـإن المتقين يردونها وروداً ينجـون به من عذابها والظالمين يردونها وروداً يصـيرون جثيـاً فيها بــه. فليس الــورود كــالورود)) [1] إلى غــير ذلك من مـــراجعتهم لرســـول الله ((فلما كـــان في أواخر عصـــرهم حـــدثت الشـــيعة والخـــوارج ، والقدرية والمرجئـة، فبعـدوا عن النـور الـذي كـان عليه أوائل الأئمــة، ومع هــذا فلم يفــارقوه بالكلية ، بل كــانوا للنصـــــوص معظمين، وبها مســــتدلين، ولها على العقول والآراء مقدمين، ولم يَدَّعِ أحد منهم أن عنده عقليات تعارض النصوص، وإنما أتوا من سـوء الفهم فيها، والاستبداد بما ظهر لهم منهــا، دون من قبلهم، ورأوا أنهم إن اقتفوا أثرهم كانوا مقلدين لهم فصـاح بهم من أدركهم من الصحابة وكبـار التـابعين من كل قطر، ورموهم بالعظائم، وتبرءوا منهم، وحـذروا من سـبيلهم أشد التحـذير، ولا يـرون السـلام عليهم ولا مجالستهم، وكلامهم فيهم معروف في كتب السـنة، وهو أكـثر من أن يـذكر هاهنـا، فلما كـثرت الجهمية في أواخر عصر التـابعين كـانوا هم أول من عـارض الوحي بالرأي، ومع هذا كـانوا قليلين أولاً مقمـوعين مــذمومين عند الأئمـــة، وأولهم شــيخهم الجعد بن درهم، وإنما نفق عند الناس بعض الشـيء لأنه كـان معلم مـروان بن محمد وشـيخه ولهـذا كـان مـروان يسمى مروان الجعـدي وعلى رأسه سـلب الله بـني أمية الملك والخلافة وشتتهم في البلاد ومــزقهم كل ممزق ببركة شيخ المعطلة النفاة، فلما اشتهر أمره في المســلمين ، طلبه خالد بن عبد الله القســري،

---

[1] (?) الصواعق (3/1052) .

وكـان أمـيراً على العـراق، حـتى ظفر بـه، فخطب النـاس في يـوم الأضـحى ، وكـان آخر ما قـال في خطبتــه: أيها النــاس، ضـحوا تقبل الله ضــحاياكم ، فـــإني مضـــح بالجعد بن درهم فإنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليماً، ولم يتخذ إبراهيم خليلاً ، تعـالى الله عما يقول الجعد علواً كبـيراً ثم نـزل فذبحه في أصل المنـــبر، ...... ثم طفئت تلك البدعة فكـــانت كأنها حصاة رمي بهـا، والنـاس إذ ذاك عنق واحد أن الله فـــوق ســـمواته على عرشه بـــائن من خلقه موصـوف بصـفات الكمـال ونعـوت الجلال وأنه كلم عبـده ورسـوله موسى تكليمـاً وتجلى للجبل فجعله دكـاً هشـيماً إلى أن جـاء أول المائة الثالثة ، وولي على النــاس عبد الله المــأمون، وكـان يحب أنــواع العلوم، وكـان مجلسه عـامراً بـأنواع المتكلمين في العلوم، فغلب عليه حب المعقولات ، فـأمر بتعـريب كتب يونـــان ، وأقـــدم لها المـــترجمين من البلاد، فعـربت لـه، واشـتغل بها النـاس ، والملك سـوق ما ســـوق فيه جلب إليه ، فغلب على مجلسه جماعة من الجهمية ممن كـان أبــوه الرشــيد قد أقصــاهم وتتبعهم بـــالحبس والقتل فحشـــوا بدعة التجهم في أذنه وقلبه فقبلهـا، واستحسـنها، ودعا النـاس إليهـا، وعـــاقبهم عليها))[1]. ومنذ ذلك الحين تمــيزت فرقة أهل الاعتزال بمغالاتها في العقل ومقاييسه وتقديمه على ما يظن مخالفـــاً له من النصـــوص الشـــرعية وعرفت بـذلك بين فـرق الإسـلام المختلفة . والـذي دعاهم إلى هذا الالتفاف حول العقل في ظني أمــور كثيرة –والعلم عند الله تعالى- منها :

---

[1] (?) الصواعق (3/1069) .

أولاً: أخذهم من تراث الأولين من فلاسـفة اليونـان ممّن لم ينعموا بمصاحبة وحي إلهي يقود مسـيرتهم فصاروا يقضون في شؤونهم كلها بهـذا العقل الـذي زادوا من سلطانه وانفـراده فكـانت مصـنفات أولئك الفلاسـفة تضم المقـاييس العقلية في شـكل منطق يتحـاكم إليه في القضـايا العقليـة. فتـابعهم في ذلك المتكلمـون والمعتزلة من أهل الإسـلام وأعجبـوا بصنيعهم ذلك. وكل هـذا بفضل جهـود الترجمة الـتي قـام بها بعض الخلفـاء فـأوقعوا الأمة في هـذه المصـائب المتتالية من حيث ظنـوا أنهم يحسـنون صنعاً بها. ويشهد لذلك: أن المعتزلة لم يعلُ صـيتهم وتظهر عقلانيتهم واضـــــحة إلا في عهد الخليفة المـأمون الـذي مهّد السـبيل للاقتبـاس من كتب اليونان وأعـانهم عليها [1]. حـتى أحـدثت الفلسـفة – كما يقول زهدي حسين – ((في حياتهم انقلاباً خطيراً وفي تفكيرهم ثـورة عنيفة لأنهم بعد أن وقفـوا على مواضـيعها وتعمقـوا فيها أحبوها لـذاتها وتعلقـوا بها فنتج عن ذلك أمران:

1- أنهم صـاروا يعظمـون الفلاسـفة اليونـان وينظـرون إليهم نظـرة أسـمى وأقـدس من نظرتنا إليهم اليـوم ويضـعونهم في مرتبة تقـرب من عتبة النبـوة. ثم آمنـوا بـأقوالهم واعتبروها كما يقـول أولـيري مكملة لتعـاليم دينهم. وانهمكـوا لـذلك في إظهـار الاتفـاق الجـوهري بينها فبـدأ عمل المعتزلة الآخر المهم ألا وهو التوفيق بين الـدين الإسـلامي وبين الفلسـفة اليونانيـة.. ذلك العمل الـذي تركـوه

---

[1] (?) نقل السـيوطي عن شـيخ الإسـلام أنه ((كـان يقـول: ما أظن الله يغفل عن المـأمون ولابد أن يقابله على ما اعتمـده مع هـذه الأمة من إدخاله هـذه العلـوم الفلسـفية بين أهلها أو كما قـال)) (صـون المنطق 9) .

لمن خلفهم من الفلاسفة المسلمين كابن رشد والفارابي والكندي الذين قاموا بنصيبهم فيه وكانوا لا يقلون عنهم عناية به وتحمساً له.

2- أن المعتزلة أخذوا يبتعدون عن أهدافهم الدينية ويهملون تدريجياً عقائدهم اللاهوتية ويزدادون انصرافاً إلى المسائل الفلسفية حتى جاء وقت كادت جهودهم فيه تقتصر على البحث في مواضيع الفلسفة البحتة كالحركة والسكون والجوهر والعرض والموجود والمعدوم والجزء الذي لا يتجزأ... إن اشتغال المعتزلة بالتوفيق بين الدين والفلسفة وشغفهم بالأبحاث الفلسفية وتعمقهم فيها جعلهم يتأثرون بالفلسفة كثيراً ويصبغون بها معظم أقوالهم. ولهذا قال شتينز: إن الاعتزال في تطوراته الأخيرة كان أكثره متأثراً بالفلسفة اليونانية)) [1]. فإن قيل بأنهم قد سبقوا هذه الترجمة . فنقول إن ترجمة تراث الأقدمين ليست مقصورة على الخليفة المأمون ولكنه هو الذي تولى كِبْرها. فقد بدأت الترجمة كما يُذكر في عهد الخليفة المنصور الذي أوعز إلى ابن المقفع بترجمة بعض كتب المنطق ككتاب (المقولات) ((وبعد مضي عصر المنصور أتى عصر المهدي وانتهى ومر عصر الهادي بعد عصر المهدي دون أن تُؤثر عنهما أو عن واحد من الأشخاص البارزة في وقتهما شيء يتعلق بالترجمة في عمومها فضلاً عن ترجمة الفلسفة بمعناها الخاص)) [2]. أما الرشيد فقد أمر بإعادة ترجمة الكتب التي سبقت ترجمتها في العهود التي قبله أكثر من تشجيعه على ترجمة كتب جديدة . ثم

---

1 (?) المعتزلة (49) .

2 (?) الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي – محمد البهي (169) .

جاء عصر المأمون وهو العصر الـذهبي للترجمة كما يقال.

قـال ابن صـاعد في طبقـات الأمم ((لما أفضت الخلافة إلى المـأمون تمم ما بـدأ به جـده المنصـور فأقبل على طلب العلم من مواطنه واستخراجه من معادنه بفضل همته الشريفة! وقوة نفسه الفاضـلة! فـداخل ملـوك الـروم وأتحفهم وسـألهم صـلته بما لـديهم من كتب الفلاسـفة فبعثـوا إليه بما حضـرهم من كتب أفلاطون وأرسطو وبقراط ... وغـيرهم من الفلاسفة فاختـار لها مهـرة التراجمة وكلفهم إحكـام ترجمتها فـــــترجمت له على غاية ما يمكن ثم حض الناس على قراءتها ورغبهم في تعليمها)) [1].

قلت : والذي دعاه إلى هذه الهمة في الترجمة تشربه بمبدأ الاعـتزال القـائم على العقل ومقاييسه واستصغاره لنصوص الوحي – لا سيما الحـديث – أن تفي بحاجات الأمة . إضـافة إلى جلسـاء السـوء من رمـــوز الاعـــتزال وما يُـــذكر عنه من حبه للاطلاع والاستزادة من ثقافات الآخرين .

وأما اقتباس المعتزلة من تراث الديانة اليهودية والمسيحية فليس هذا مكانه لأن الحـديث عن العقل والعقلانية الـــتي تمـــيزت بها الثقافة اليونانية دون غيرها فلهـذا قصـرت القـول على كيفية اسـتفادتهم منها .

ثانياً: ومما جعلهم ينحـون هـذا الاتجـاه العقلاني هو ضـعفهم في مجـال الرواية وجهلهم لعلم الحـــديث النبـــوي واقتصـــارهم على آيـــات القـــرآن وبعض الأحاديث التي رأوا أنها تؤيد أقـوالهم. فهـذا الضـعف في علم الحديث قد ألجأهم إلى المعقولات ليعوضوا

---

[1] (?) الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي – محمد البهي (169) .

بها ما عندهم من نقص ويسدوا به ثغـرات مـذهبهم. وهـذا مصـداق ما روي عن عمر بن الخطـاب رضي الله عنه قال ((إن أصحاب الرأي أعداء السنة أعيتهم الأحـــــــاديث أن يحفظوها وتفلتت منهم فلم يعوها واستحيوا حين سئلوا أن يقولـوا لا علم لنا فعارضـوا السنة برأيهم إياك وإياهم)) [1] .

ومما صد كثـــيراً منهم عن طلب الحــــديث والســــعي وراء حلقاته ما رأوه من كـــثرة الوضع وانتشـــار الأحـــاديث الضـــعيفة بين رواة الحـــديث واختلاطها بالصحيح منه وكـان من تلك الأحـاديث ما يعارض المعقول فظنـوا لجهلهم أن لا ضـابط يفـرق بين الصـــحيح والســـقيم منهـــا. وإن زعم ذلك أهل الحديث . فرأوا أن الرأي الصائب أن يدعوا صحيحها وســـقيمها وأن يقتصـــروا على ما يوافق بـــدعهم وآراءهم منها . ولا يخفى على دارس أن الأحـــاديث قد دُسَّ في جملتها –لأغـراض شـتى- الموضـوعات والمكـذوبات على رسـول الله حـتى راجت على بعض العلماء فاحتجوا بها لا في الفقه وحـده بل في أمـور العقيـدة . خاصة مسـائل الصـفات ولـذا أنكر بعض المحققين كابن قدامة تلك الأحـاديث الضـعيفة والموضوعة وروايتها ضمن عقائد السلف .

قـــال ابن قدامة (ينبغي أن يُعلم أن الأخبـــار الصــحيحة الــتي ثبتت بها صــفات الله تعــالى هي الأخبار الصـحيحة الثابتة بنقل العـدول الثقـات الـتي قبلها السـلف ونقلوها ولم ينكروها ولا تكلمـوا فيهـا. وأما الأحــاديث الموضــوعة الــتي وضــعتها الزنادقة ليلبسوا بها على أهل الإسلام أو الأحـاديث الضـعيفة إما لضعف رواتها أو جهـالتهم أو لعلـةٍ فيها فلا يجـوز

[1] (?) الحجة (1/205) .

أن يقـال بها ولا اعتقـاد ما فيها بل وجودها كعـدمها. وما وضعته الزنادقة فهو كقولهم الـذي أضـافوه إلى أنفســهم فمن كــان من أهل المعرفة بــذلك وجب عليه اتباع الصحيح واطراح ما سواه ومن كان عامياً ففرضه تقليد العلمـاء وسـؤالهم لقـول الله تعـالى (**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**) وإن أشــكل عليه علم ذلك ولم يجد من يســأله فليقف وليقل : آمنت بما قاله رســـــول الله ولا يثبت بها شيئاً، فإن كان هـذا مما قاله رسـول الله فقد آمن به وإن لم يكن منه فما آمن به)) [1] .

وقـال شـيخ الإسـلام ابن تيمية منكـراً على أبي يعلى روايته لبعض تلك الأحــــاديث الضـــــعيفة في الصــفات ((والمقصــود هنا أن ما لم يكن ثابتــاً عن الرسـول لا نحتـاج أن ندخله في هـذا البـاب سـواء احتيج إلى تأويل أو لم يحتج)) [2] .

لكن لا يعــني رواج تلك الأحــاديث على قلة من العلماء –غير المحـدّثين- اجتهـدوا في إدخالها ضـمن عقائد السـلف أن نـدع الحـديث جملة ونفر منه إلى غيره. فهل هذا إلا تولية للأدبـار عن الـدين كلـه؟ بل كان الأولى بهـؤلاء أن يجتهـدوا في معرفة الأحـاديث الصحيحة التي لا تعارض المعقول أبداً ويمـيزوا بينها وبين ضــعيف الحــديث كما فعل جهابــذة الحــديث ونقاده الذي اصطفاهم الله لذلك.

واعلم أن هذا الاختلاط في الأحاديث كان لِحكَم لا يحصيها إلا الله سبحانه: منها أن يظل كلامه تعالى متمــيزاً عن غــيره من كلام البشر ولو كــان كلام رسول الله ، ومنها أن تكون فتنة للجهلة وأصـحاب القلوب المريضة وامتحاناً يميز الله فيه الخـبيث من

---

1 (?) ذم التأويل (47) .

2 (?) درء التعارض (5/239) .

الطيب، ومنها أن تظهر براعة علماء الحـديث. ومنها أن يأجرهم الله تعـالى على صـبرهم واجتهـادهم في تميـــيز الأحـــاديث، ومنها أن يتنـــافس العلمـــاء في الصالحات، ومنها أن تكثر العلـوم الإسـلامية وتتنـوع وينتشر لأجل ذلك طلب العلم والسـعي فيـه، ومنها أن يظهر فضل هـــــــــذه الأمة في حفظ دين نبيها وأقواله والحرص على جمعها وتهـذيبها بخلاف غيرها من الأمم ممن حـــــرف وبــــدل، ومنها أن يغتـــــاظ الشـــيطان وحزبه إذا رأوا هـــذا الجد من الأمة في حفظ سنة نبيها ، وحكم أخرى غيرها .

ثم اعلم أنه بـــرغم هـــذا الاختلاط الظـــاهر في الأحاديث فـإن سـنة النـبي تظل محفوظة من قبل الله لا يشك مســــلم في ذلك لأنه تعـــــالى تكفل بحفظها في قولـه: (**إنا نحن نزلنا الـذكر وإنا له لحـــــافظون**) وقوله : (**وأنزلنا إليك الكتـــــاب لتبين للناس ما نزل إليهم من ربهم**) وقولــه: (**أطيعوا الرسـول**) فـإذا اعتُقِد أن بعضـاً من تلك الأحاديث قد فقـدت أو اختلطت بغيرها حـتى لم تعد تعرف فكيف يطاع الرسـول الـذي أمر به تعـالى؟ وكيف يُــرَدُّ إلى حُكمه عند الاختلاف؟ فهل هـــذا إلا تكليف ما لا يطاق؟ وهل هـذا إلا إيـذانٌ بعـدم كمـال الدين واستمراره إلى يوم القيامة؟

وأيضـــاً فهـــذه الأحـــاديث ((ما اختلطت إلا على الجاهلين بها فأما العلماء بها فـإنهم ينتقـدونها انتقـاد الجهابذة الدراهم والدنانير فيميزون زيوفها ويأخذون جيادها ولئن دخل في غمار الــرواة من وسم بالغلط في الأحـاديث فلا يـروج ذلك على جهابـذة أصـحاب الحديث ورتوت[1] العلماء حتى إنهم عدو أغاليط من

---

[1] (?) قـال ابن الأعـرابي : الـرت : رئيس البلد جمعها (رتـوت) (الصـحاح 249) .

غلط في الأسـانيد والمتـون بل تـراهم يعـدون على كل رجل منهم في كم حـديث غلط وفي كم حـرف حـرّف ومـاذا صـحف؟ فـإذا لم يـرج عليهم أغاليط الرواة في الأسانيد والمتون والحـروف فكيف يـروج وضع الزنادقة وتوليدهم الأحاديث))[1].

ثالثـاً: مما صـرفهم عن المـأثورات إلى تلك المعقـولات هو حب التمـايز على الآخـرين وشـهوة الانفـراد بشـيء غـير معـروف عند عامة النـاس ليـذكروا به ولا يكونـوا كغـيرهم من جملة أهل الحـديث. وهـذا السـبب لم يـزل في النـاس قـديماً وحديثاً فلو تدبرت حال كثير من أهل البـدع لوجـدت النشأة الأولى لهم هذه الشهوة الخفية.

قال الإمـام أبو القاسم الأصـبهاني واصـفاً حـال هؤلاء العقلانـيين ((إني تـدبرت هـذا الشـأن فوجـدت عظم السـبب فيه أن الشـيطان صـار بلطيف حيلته يسوّل لكل من أحس من نفسه بفضل ذكـاء وذهن، يوهمه أنه إن رضي في علمه ومذهبه بظاهر السنّة، واقتصر على واضح بيـان منها كـان أسـوة العامـة، وعـدّ واحـداً من الجمهـور والكافـة، فحـرّكهم بـذلك على التنطع في النظـر، والتبـدع بمخالفة السـنّة والأثر، ليبينوا بذلك عن طبقة الدهماء ، ويتميزوا في الرتبة عمّن يرونه دونهم في الفهم والـذكاء، واختدعهم بهـذه المقدمة حـتى اسـتزلهم عن واضح المحجة ، وأورطهم في شـبهات تعلقـوا بزخارفهـا، وتـاهوا في حقائقهـا، ولم يخلصـوا منها إلى شـفاء نفس، ولا قبلوها بيقين علم، ولما رأوا كتـاب الله تعالى ينطق بخلاف ما انتحلوه، ويشهد عليهم بباطل ما اعتقـدوه، ضـربوا بعض آياته ببعض وتأولوها على

---

[1] (?) الحجة (2/134) .

ما سنح لهم في عقـولهم، واسـتوى عنـدهم على ما وضعوه من أصولهم، ونصبوا العـداوة لأخبـار رسـول الله ولسـننه المـأثورة عنـه، وردّوها على وجوهها وأسـاءوا في نقلتها القالة ، ووجهـوا عليهم الظنـون، ورموهم بالتزيد، ونسبوهم إلى ضعف المنّـة، وسـوء المعرفة بمعـــاني ما يروونه من الحـــديث، والجهل بتأويله، ولو سلكوا سبيل القصد ووقفوا عندما انتهى بهم التوقيــف، لوجــدوا بــرد اليقين وروح القلــوب، ولكـــثرت البركة وتضـــاعف النمـــاء ، وانشـــرحت الصدور، ولأضـاءت فيها مصـابيح النـور، والله يهـدي من يشاء إلى صراط مستقيم))[1] .

هــذه الأســباب الثلاثــة: تــأثرهم بــالعلم الوافد وضــعفهم في علم الحــديث وشــهوة التفاضل على الغــير . هي في نظــري أهم الأســباب الــتي أدارت وجوه القوم إلى العقل والعقلانية وألجأتهم إليها .

إذن ... هذا هو حال العقلانـيين الأوائل في هـذه الأمة . فرقة ســادت قليلاً ثم بــادت. قــال الــدكتور مصـطفى الشـكعة ((أما المعتزلة فقد انـدثر حـزبهم كمــذهب قــائم بذاته فلم نعد في عصــرنا الحــديث نســـــمع عن الواصـــــلية أو الهذيلية أو النظامية أو الجاحظية أو البشــرية أوا لجبائية إلى غــير ذلك من المــدارس الاعتزالية الفرعيــة. وإنما ذاب المــذهب في تعـاليم الشـيعة الإمامية والشـيعة الزيدية بحيث أخذ المـــذهبان أطيب ما عند المعتزلة من أفكـــار! واطرحا ما قد توسط فيه علمـــــاء الاعـــــتزال من تطرف واندفاع)) [2].

قلت: ولكن بقيت من أصـــولها الفكرية الأصل الذي يغالي في دور العقل في أمور الشريعة وأصبح

---

1 (?) الحجة (1/372) .

2 (?) إسلام بلا مذاهب (619) .

مناراً يهدي العقلانيين إلى سـبيل الرشـاد! ويـدفعهم عن طريق الفساد !.

ثم جاء بعد المعتزلة آحاد الفلاسـفة الإسـلاميين المفترقين مكانـاً وزمانـاً فـزادوا في الميل إلى تلك المعقولات فكانت هي رأس مالهم . ولقد كـانوا كما قـال أحمد أمين ((فلاسـفة أولاً ودينـيين آخـراً . لا ينظـــرون إلى الـــدين إلا عند ما تتعـــارض نظرية فلسـفية مع الـدين فيجـدوا للتوفيق بينهما))[1]. فلـذا لم يؤثروا في حياة المسلمين كتـأثير المعتزلة الـذي خلطوا الدين بالكلام وموَّهوا على المسلمين بنصرة دينهم . وإنما اندثرت أفكـارهم النظرية بمـوتهم فلم تبن مجتمعـاً ولم تُقم على سـلطة ولكنهم تلازمـوا وإيـاهم في تعظيم (العقـل) لأنه كما قلت بضـاعتهم الوحيدة، فهذا الـرازي يتحـدث كثـيراً عن العقل في كتبه. ويأتي بعده ابن سيناء فيغلو في العقل إلى أن أطلقه على الله تبارك وتعـالى. وأقـربهم مـودة إلى العقلانيين فيلسوف المغرب ابن رشد.

إذن بعد مـــوت المعتزلة لم تقم فرقة واحـــدة تـدعو إلى إعلاء العقل على حسـاب غـيره وإنما لم تخل الأمة من أفــراد يرفعــون أصــواتهم بين الحين والآخر مطـــالبين بتلك الفكـــرة لأســـباب متنوعـــة. ويحضـرني منهم فيلسـوف المعـرة – كما يُسَـمّى- الشاعر أبا العلاء المعري . وهو من ملاحدة الشعراء في كـثرة اعتراضه على الشـرع بل على الـديانات كلها . وتمجيده للعقل والإيمان الإلهي المجرد يقـول عنه طه حسـين ((لا يـؤمن إلا للعقل وحـده فخـالف بهذا أهل السـنة لأنهم يقدسـون الشـرع على العقل وإن آمنــوا به وخــالف مــذهب المعتزلة لأنهم على

---

[1] (?) ضحى الإسلام (3/204) .

تقديسـهم للعقل يتخـذون الشـرع لنظـرهم أصـلاً ودليلاً يعتزون به ويلجئون إليه)) [1]. ويقـول الـدكتور عمر فــروخ ((يعتقد المعــري أن من اتسع عقله لم يضل هـذا إذا كـان له عقـل! أما إذا لم يكن له عقل فهو يعمل أعماله بالتقاليد أو يســــــــاق إليها كالعجمـاوات . ولم يكتف المعـري بـأن يحكم العقل في الأمور الـتي جـرت العـادة بتحكيمه فيها بل أراد أن يكـون العقل والفكر في أكـثر الأغـراض الـتي تناولها المعري في لزومياته حـتى في العبـادات وهو في كل ذلك يــزدري شــيئين ازدراءً شـديداً التقليد والأخبار المروية . ولذلك تراه يتلقى كل خبر مـروي أو كل عادة شائعة بميزان العقل)) [2].

قلت : وهذا مصـدق لما نبهتك عليه سـابقاً من أن انتشــار الأحــاديث الضـعيفة والموضـوعة كـان صارفاً لبعض الجهلة في الحديث – كـالمعري مثلاً – إلى إعظام دور العقل. فهو يقول ناصحاً للأمة :

خـــذوا في ســـبيل العقل تهدوا بهديه ... ولا يرجـــون غـــير المهيمن راج

ولا تطفئوا نور المليك فإنه ... ممتع كل من حجا بســـراج [3]

ويقف متحـيراً أمـام بعض الأحـاديث الضـعيفة التي تخالف العقل فيقول:

جـاءت أحـاديث إن صـحت ... شـــأناً ولكن فيها ضـــعف

---

1 (?) تجديد ذكرى أبي العلاء (239) .

2 (?) تاريخ الفكر العربي (448) .

3 (?) لزوم ما لا يلزم (1/366) .

فإن لها إسناد

فشاور العقل واترك غـيره هدراً فالعقل خـير مشـير ضـمه النادي[1]

أي لا تتعب نفسك بدراسة علم الحـــــــــديث ومصطلحه وإنما انبذ ذلك كله وشاور عقلك !.

ويقول :

عليك العقل وافعل ما رآه جميلاً فهو مشـــــــــتار الشوار[2]

وهو الإمام والقائد للإنسان

كذب الظن لا إمام سوى العقل مقيمــاً في صــبحه والمساء[3]

ويبلغ الغلو في تمجيد العقل عند هــــذا الملحد إلى أن ينزله منـــازل الأنبيـــاء! كما صـــنع المعتزلة بالنصوص فهو يقول:

أيها الغِر إن خُصصت بعقل فاسـألنه فكل عقل نـبي ![4]

لم يكن أبو العلاء معتزليـــــــاً ... كما ذكر طه حســـين، فهو عنـــدما أشـــاد بالعقل وقدسه قد ذم المعتزلة في شـــعره كثـــيراً وأعلن الـــبراءة من مقولاتهم . خاصة قولهم بالقدر فهو يقول:

جنوا كبائر آثام وقد زعموا أن الصـــغائر تجـــني الخلد في النار[1]

---

1 (?) المصدر السابق (1/500) .

2 (?) المصدر السابق (2/756) .

3 (?) المصدر السابق (1/61) .

4 (?) المصدر السابق (3/1716) .

وينصح سامعه بأن لا يكون منهم :

لا تعش مجبراً ولا قدرياً واجتهد في توســــطٍ بين بينا[1]

ويخبر عن نفسه أنه بمعزل عنهم :

ارجوا واعتزلوا فإني عن مقالتكم بمعزل[2]

أي كونوا مرجئة أو معتزلة فلست معكم .

يقــول الــدكتور عمر فــروخ ((قد يعجب أحــدنا فيقول إن المعري يهاجم المعتزلة مع أنهم يفضـلون العقل على النقل كما يفعل هو . أجل إنه ليس معتزليــاً وإن كــان يــرى رأي المعتزلة في تفضــيل العقل على ما روي في الــدين من أخبــار وإنما هو يهـاجم من المعتزلة أولئك الـذين يضـيعون أوقـاتهم وأوقات غيرهم بالجدل العقيم لا الذين يحلون العقل مرتبة ســـــامية)) [3] . فهو يلتقي معهم في العقلانية دون أصولهم الأخرى . ودعــاه إلى ذلك ما دعــاهم – كما سبق – فإن النفوس والأهواء واحدة .

ثم تمضي الأيــام وتتعــاقب الليــالي فيظهر في هــذه الأمة عقلاني آخر اشــتهر بشــعره الفلســفي كالمعري . هو الشاعر العراقي جميل الزهاوي الذي كان أبـوه مفتيـاً لبغـداد! ومن نسل خالد بن الوليـد! وهـذا الشـاعر قد اشـتهر عند الجمهـور إضـافة إلى

---

1 (?) المصدر السابق (2/736) .

1 (?) المصدر السابق (3/1579) .

2 (?) المصدر السابق (3/1357) .

3 (?) تاريخ الفكر (448) ويـرى طه حسـين أن المعـري كـان جبريـاً لأن ((حياته المادية وشعره في اللزوميات ينطقـان بـذلك))، تجديد ذكـرى أبي العلاء (262) .

عقلانيته بعداوته الشـديدة للحجـاب الإسـلامي فهو صاحب القصيدة المشهورة .

مــــزقي يا ابنة العــــراق الحجابا ... واســـفري فالحيـــاة تبغي انقلاباً

مزقيه واحرقيه بلا ريث ... فقد كان حارساً كذاباً

مزقيه وبعد ذلك أيضاً ... مزقيه حتى يكون هباباً

وانزعيه بقوة وطئيه ... واجعلي في فم الحـــــنيق تراباً

وهي قصيدة طويلة وجريئة يسـتحق لأجلها على كل بيت من أبياتها أن يستتاب أو يعزر .

هـذا في الحجـاب[1] .... وأما العقل فقد عـرف هـذا الملحد بمحاكاته لسـلفه المعـري في التعويل على العقل وتقديمه على النصوص الشـرعية. وإليك شيئاً من أشعاره :

على العقل في كل الأمور المعول ... ولـــولاه لم ينحل للمــــرء مشكل

وما العقل في الإنسـان إلا ابن رأيه ... تولد فيه آخر وهو أول

وللعقل أنـــوار بها يهتـــدي الفتى ... وأبهج بـــــــأنوار لها العقل يرسل[2]

---

1 (?) وللزهاوي أيضاً كتاب في الرد على (الوهابيـة)! حيث زعم أن شـيخ الإسـلام محمد بن عبد الوهـاب رحمه الله مجسّـم! ويكفر المسـلمين جميعهم .
انظر : الزهاوي وديوانه المفقود – هلال ناجي (33) (56) .
والطريف أنه بعد سـنوات مـدح الملك عبد العزيز ! وهـذا من التنـاقض الذي اشتهر به كالمعري .. رحم الله المسلمين.

2 (?) الزهاوي وديوانه المفقود – هلال ناجي (83) .

ويقول :

خضعت لعقلي في حيـاتي كلها | وما كنت يومـــاً خاضـــعاً لعواطفي[1]

وأيضاً :

دع المحال وكلم | بلهجة المستدل

ما كنت أقبل إلا | ما ليس يأباه عقلي[2]

وأيضاً :

قالوا اتـرك العقل لا تعمل به | حتى يؤيد حكمه المنقول

قلت اتـــرك المنقـــول لا تعمل به | حـــــــــــتى يؤيد حكمه المعقول[3]

المدرسة العقلية الحديثة :

وفي عصر الزهاوي بدأت تتكامل ملامح مدرسة التجديد الـديني الـتي غـرس بـذرها جمـال الـدين الأفغاني وتلاميذه في مصر. وهي المدرسة الوحيـدة الـتي اسـتطاعت مع بعض الاختلافـات الطفيفة أن تشـكل تيـاراً عقلانيـاً كتيـار المعتزلـة، فهو القاسم المشـــترك بين أعضـــائها وإن اختلفت وجهـــات كل واحد منهم في الأصول الدينية الأخرى.

---

1 (?) المصدر السابق (84) .

2 (?) المصدر السابق (84) .

3 (?) المصدر السابق (84) .

والحديث عن هـذه المدرسة العقلانية الحديثة – أعني مدرسة الأفغاني ومحمد عبده وتلاميذهما- مما يطول مـداه وتكـثر كلماتـه، حيث أن هـذه المدرسة بحق قد خـرَّجت كثـيراً من العقلانـيين المعاصـرين الذي تتلمـذوا على شـيوخها مباشـرة، أو عن طريق تراثهم، فأصبحوا يشكلون تياراً ضخماً في فـترة من الفـــترات، فكـــان لهم رجـــالهم في السياسة وفي المجتمع وفي علــوم الشــريعة.. وهكــذا في خليط عجيب لا يجمعهم سـوى الالتقـاء على مبـادئ هـذه العقلانية الجديـدة الـتي زاحمت النصـوص الشـرعية وردت أو تأولت كثيراً منها بـدعوى معارضـتها للعقل أو للحضارة المادية المعاصرة.

فكـــان منهم: ســعد زغلــول وقاسم أمين وعبد العزيز جاويش وأحمد أمين ومحمود شلتوت..... الخ .

ثم تبع آثارهم من بعدهم كـالغزالي والقرضـاوي ومحمد عمارة وحسين أحمد أمين .

ثم من بعــدهم كفهمي هويــدي .... وهكــذا في سلسـلة يطـول الحـديث عنهـا. وفي ظـني أن هـذه المدرسة لم تحظ إلى الآن بدراسة شـــــــاملة عن أفكارها وأفرادها المنتمين إليهـــا.. إنما هي أشـــتات دراسات[1].

فلعل نابتها يقوم بهذه المهمة المفيدة (لتستبين ســـبيل) هـــذه المدرسة الغامضة الـــتي احتفى بها الغرب كثيراً.

---

1 (?) من أهمها دراسة الدكتور فهد الرومي عن منهج هـذه المدرسة في التفسير – كما سبق -،

بعد هــذه المدرسة القريبة العهد بنــا، أصــبحنا نســمع ونــرى بين الحين والآخر رجــالاً قد طــالتهم أيدي هذا التيار فتمذهبوا بمذهبه في الرفع من شأن العقل والعقلانية على تفـــاوت في جرعـــات العقل فيما بينهم. فاسمع لأحدهم يقـول ((أكـاد واقطع بأننا لو سرنا في طريق التقليد مئات الســنوات وانحرفنا عن نهر العقل فلن نسـتطيع التقـدم خطـوة واحـدة في سبيل إرساء دعـائم فلسـفتنا العربية وكشف ما فيها من مـــواطن القـــوة والضـــعف)) [1]. ويعـــني بالتقليـــد... اتبـــاع النصـــوص الشـــرعية! لا التقليد المتعـــارف عليه عند الفقهـــاء وأهل الأصـــول. لأنه جاهل لا شك بذلك!.

لا تثريب على فلاسفة اليونان وفلاسـفة الغـرب أن يقدسـوا عقـولهم ويرجعـوا إليها في كل شـاردة وواردة من أمور الغيب ونظم الحياة لأنهم قد ضــلوا وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السـبيل. فقد حرمـوا نعمة الـوحي الإلهي الـذي يكشف للإنسـان عن تلك العــــوالم المجهولة الــــتي تخفى عليه ولا تطولها حواسه ولا عقله مهما عَظُم أو كـبر وتكشف له قبل ذلك عن صفات الإله المعبود وذاته المقدسة وتريحه من عناء البحث المضني في ذلك والذي لن يأتِ بأي نتيجة لهذا الإنسان تكشف له عن أشياء كثـيرة غائبة بل وحاضرة ولكن تخفى حكمتها عليه.

لا تثريب على فلاسفة اليونـان والغـرب! الـذين ضــلوا مع قــوة عقــولهم وذكــائهم، ولكن كما قــال الإمام الذهبي ((لعن الله الذكاء بلا إيمان ورضي الله عن البلادة مع التقوى))[2].

---

1 (?) ثورة العقل في الفلسفة العربية – د. محمد العراقي (13) .

2 (?) سير أعلام النبلاء (14/62) .

ولكن اللـوم والأسى على من أنـار الله بصـيرته بالإســلام وشـــرح صــدره بـــالقرآن من فلاســفتنا ومتكلمينا فنبذ كل ذلك وراء ظهره وآثر الضـلال بعد الهــدى والعمى بعد البصــيرة جانحــاً إلى فلاســفة اليونان الوثنيين وعقولهم يزاحم بها نصوص الكتــاب والسنة .

قـال الحافظ ابن حجر ((قد توسع من تـأخر عن القرون الثلاثة الفاضلة في غالب الأمور التي أنكرها أئمة التابعين وأتباعهم ولم يقتنعوا بذلك حتى مزجوا مسائل الديانة بكلام اليونان وجعلـوا كلام الفلاســفة أصــلاً يــردون إليه ما خالفه من الآثــار بالتأويل ولو كان مستكرهاً ثم لم يكتفـوا بـذلك حـتى زعمـوا أن الذي رتبوه هو أشرف العلوم وأولاها بالتحصـيل وأن من لم يستعمل ما اصطلحوا عليه فهو عامي جاهل، فالسـعيد من تمسك بما كـان عليه السـلف واجتنب ما أحدثه الخلف)) [1] .

0• الرد على العقلانيين :

بعد هـــذا الطـــواف مع العقل وتعريفه ومكانه وموقف المعظِّمين له، يأتي دور الـرد على أصـولهم العقلية التي فُتنوا بها طويلاً وظنوها يقينيات لا يأتيها الباطل من بين يـديها ولا من خلفها ! وثق كثـيراً أن هــذه الأصــول الــتي وضع معظمها أســلاف هــؤلاء العقلانيين الذين نراهم في كل عصر وآن هي المتكأ الوحيد لكل عقلاني جـاء بعد أولئك القـوم، مصـداقاً لمن قال: لكل قومٍ وارث.

ولعل من تدبر كتابات القـوم ومقـالاتهم يضـيف على هـذه الأوجه الـتي سـأذكرها ما يُكملها ويجعلها

---

[1] (?) فتح الباري (13/267) .

على هـذه الأوجه الـتي سـأذكرها ما يُكملها ويجعلها تحيط بجميع شبهاتهم. فأقول مستعيناً بالله-:

الوجه الأول : أن يقـــال أن حجتكم وعمــــدتكم الأولى في تقـــــديم العقل على النقل أن النقل لم يثبت إلا بالعقل وبعبــارة أحــدهم : ((فالعقل هو أول الأدلة وليس ذلك فقط بل هو أصلها الذي به يعــرف صدقها وبواسطته يكتسب الكتاب والسـنة والإجمـاع قيمة الدليل وحجيته. لأن حجية القرآن متوقفة على حجية الرســالة وهما متوقفتـــان على التصـــديق بالألوهية لأنها مصــدرها فــوجب أن يكــون لإثبــات الألوهية طريق ســـابق عليهما وهــــذا الطريق هو برهان العقل!)) [1].

وهذه حجة ضعيفة بل مضـطربة شـرحها أنه إذا كــان الإله ســبحانه وتعــالى يُسْــتدل على وجــوده وإدراكه بالأدلة العقلية، فـإذا ثبت وجـوده بها التزمنا ما بعده وهو ثبوت الكتاب والسـنة لأن الإله سـبحانه أصـلها وقد ثبت وجـوده بالعقل فيلـزم تقـديم العقل على النقل .

وهذه الحجة لا تقال إلا لكافر ! لا تقـال لمـؤمن قد ثبت يقينه بوجـود الله سـبحانه وتعـالى وبصـفاته وأســمائه أو كما قـــال ابن القيم ((إن الرجل إما أن يكون مقراً بالرسل أو جاحداً لرسـالتهم، فـإن كـان منكراً فالكلام معه في تثبيت النبـوة، فلا وجه للكلام معه في تعارض العقل والنقل فـإن تعارضـهما فـرع الإقـــــرار بصــــحة كل واحد منهما لو تجـــــرد عن المعـارض، فمن لم يقر بالـدليل العقلي لم يخـاطب في تعارض الدليل العقلي والشرعي وكـذلك من لم يقر بالدليل الشرعي لم يخاطب في هـذا التعـارض،

---

[1] (?) تيارات الفكر الإسلامي، لمحمد عمارة (ص70) .

فمن لم يقر بالأنبيــاء لم يســتفد من خــبرهم دليلاً شرعياً فهذا يتكلم معه في إثبات النبوات أولاً . وإن كان مقراً بالرسالة فالكلام معه في مقامات:
أحدها : صدق الرسول فيما أخبر به .
الثاني : وهو هل يقر بأنه أخبر بهــذا أو لا يقر به ؟
الثـــــالث : وهو أنه هل أراد ما دل عليه كلامه ولفظه أو أراد خلافه؟
الرابع : وهو أن هــذا المــراد حق في نفسه أم باطل؟
الخـــامس: وهو أنه هل كـــان يمكنه التعبـــير والإفصــاح عن الحق أو لم يكن ذلك ممكنا لــه؟)) [1].
ثم وهو الأهم إذا ثبت وجــود الإله ســبحانه وتعــالى بالعقل وأدلته فيجب أن يقف العقل إلى هــــــذه النقطة ولا يتجاوزها إلى غيرها فهو قائد أمين إلى إثبــات وجــود الله ودالّ عليه ثم يعــود إلى مســتقره الطبيعي الذي خلقه الله لأجله ولا يستلزم من إثباته لوجــود الله تعــالى أن يتجــاوز به مقــداره فيصــبح ســلطاناً على الكتــاب والســنة، فما دمت أيها العقل قد أوصـــلتنا إلى معبودنا الـــذي أرسل إلينا الرسل بوحيه وأمرهم بتبيين ذلك للناس فــالتزم ما أمــرا به ونهيا عنه ولا تتقدم عليهما.
قال ابن القيم ((قــال بعض أهل الإيمــان: يكفيك من العقل أن يعرفك صدق الرسول ومعاني كلامه ثم يخلي بينك وبينــه. وقــال آخــر: العقل ســلطان وَلَّي الرسول ثم عزل نفسه)) [2].
الوجه الثاني: أن يقــال إن العقل الإنســاني بــرغم تعظيمكم من شــأنه محــدود وضــعيف لمن تأمل في

---

1 (?) الصواعق (3/866) .
2 (?) الصواعق (3/807) .

طاقاته وخبرها؛ لأنه مقيد بحواس الإنسان وتـابع لها في أحكامه ويمكن أن يقع في الخطأ والخلـل، وكما قـال ابن القيم ((لا ريب أن البصر يعـرض له الغلط ورؤية بعض الأشياء بخلاف ما هي عليه ويتخيل ما لا وجـود له في الخـارج فـإذا حكم عليه العقل تـبين غلطه))[1]. ثم هو أيضـاً مرتبط في أحكامه بحـالات الإنسـان النفسـية والاجتماعيـة، يقـول ألكسـيس كارليل ((من الواضح أن النشاط العقلي يتوقف على وجوه النشاط الفسيولوجي فقد لوحظ أن التعديلات العضوية تتصل بتعاقب حالات الشعور وعلى العكس من ذلك فإن حالات وظيفية معينة للأعضاء هي التي تقـرر الظـواهر السـيكولوجية ويعـدل الكل المكـون من الجسم والشـعور بالعوامل العضـوية والعقلية أيضـاً، فالعقل والجسم يشـتركان معـاً في الإنسـان مثلما يشترك الشكل والرخام في التمثال فالإنسـان لا يسـتطيع أن يغـير شـكل التمثـال دون أن يحطم الرخام))[2] .

قلت: وفي نهي النـبي ﷺ للقاضي أن يحكم وهو غضبان خير دليل على تأثر العقل بالحالات النفسـية للإنسـان فهو في تلك الحالة سيقضي بما يجـانب الصـواب مما يؤكد قصـور العقل عن أداء مهمته في مطلق الأحـوال وقد اعـترف بقصـور العقل ومحدوديته كثـير من علمـاء المسـلمين وغـير المسـلمين وأنا ذاكر لك شـيئاً من أقـوالهم بادئـاً بالغربيين منهم لأنهم عمدة عند العقلانيين ! .

1-قال الفيلسوف كـانت ((يجب على العقل أن يقف في تصـوره عند حد التجربة الحسـية إذ لا يمكن لأفكارنا أن تمتد إلى كنه الأشياء ولبابها إلى الأشـياء

---

[1] (?) بدائع الفوائد (3/200) .

[2] (?) الإنسان ذلك المجهول (165) .

في أنفسها. فإذا ما حاولنا أن نعرفها بنفس الوسائل الــتي تعــرف بها الظــواهر –أي الزمــان والمكــان والسببية وغيرها– تورطنا في التناقض والخطأ» [1].
2-قــال الفيلســوف الإنجلــيزي جــون لــوك «إن كل فكرة توجد في العقل إنما يكون أساسها راجعـاً إلى الحواس ومن تعطلت حواسه جميعاً أو إحــداهما فلا يمكن أن تتكون في ذهنه أية فكــرة عن محسوســها وبذلك فلن يكون هنـاك شــيء في عقل الإنســان ما لم يكن من قبل في حواسه إذ أن العقل عبــارة عن صــفحة بيضــاء ليس عليها أي انطبــاع أو أي شــيء سابق على خبرة الحواس» [2].
3-قال أحمد أمين عن الفيلسوف برجســون «هــاجم العقل وأرادنا أن نأخذ بحكم البصــيرة لأنها أصــدق نظراً» «لقد كان جميلاً من برجسون أن يصرخ هـذه الصرخة العالية ليقف تطرف المذهب العقلي الــذي يعتد بالعقل اعتــداداً كبــيراً ولكنه لم يصب حين دعا إلى اتخاذ البصيرة وحــدها بــدل العقل لأن ذلك كمن يصحح خيال الصبا بخرافات الطفولة» [3].
قلت: وما دعاه إلى مهاجمة العقل إلا لأنه رأى ضعفه وقصوره عن إدراك جميع الحقائق.
4-يقــول الأســتاذ البــاقوي «إن العقل مهما بلغ من القــوة والــذكاء ليس إلا حاسة من الحــواس الــتي تربطنا بعالمنا المحــدود، فكما يكــون للعين مــدى تنتهي عنده مقدرتها على الإبصـار فلا تـدرك ما وراء هـذا المـدى من مرئيـات إلا أشـباحاً باهتة وصـوراً شائهة لا تغني من الحق شـيئاً.. وكـذلك الشـأن في كل حاسة من حواسنا

[1] (?) قصة الفلسفة الحديثة (1/291) أحمد أمين والعبارة له .
[2] (?) العقل والإيمان في الإسلام . د.صابر طعيمة (28) .
[3] (?) قصة الفلسفة الحديثة (2/575) .